جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

من أسرار التعبير القرآني عن الحب الأسري

(دراسة بلاغية تحليلية)

إعداد

دُكْتُور: هبة إسماعيل حسن إبراهيم

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلاميةو العربية

للبنات بالزقازيق – جامعة الأزهر .

E-mail: HEBAISMAIL.٦٧@AZHAR.EDU.EG

العـــدد العاشر

١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٣م

من أسرار التعبير القرآني عن الحب الأسري

(دراسة بلاغية تحليلية)

هبة إسماعيل حسن إبراهيم

قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: HEBAISMAIL.٦٧@AZHAR.EDU.EG

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أسرار التعبير القرآني عن الحب الأسري وإلى تأمل تراكيبه وأساليبه وتدبر معانيه ومحاولة الكشف عن دلالة تلك الأسرار البلاغية ولطائفها البيانية، وقد اشتملت الدراسة على مقدمة ، وتمهيد ، ومبحثين ، وخاتمة، وتضمنت المقدمة أهمية الموضوع ، وأسباب اختياري له ، وخطته ، والمنهج الذي سرت عليه، وفي التمهيد عرضت لمفهوم الحب ، والحب الفطري والعقدي ، وأهمية الأسرة في الإسلام وأهمية الحب بين أفراد الأسرة، وتضمنت الدراسة مبحثين، وهما الأسرار البلاغية في مقام ذكر أفراد الأسرة الأدنين، والأسرار البلاغية في مقام ذكر أفراد الأسرة غير الأدنين ، وقد استخدمت في البحث المنهج الاستقرائي لاستقراء مواضع حديث القرآن عن الأسرة ومحبتها، والمنهج التحليلي لاستخراج الأسرار البلاغية في حديثه عن الحب الأسري، ثم الخاتمة، وفيها أهم النتائج التي اشتملت عليها الدراسة ، ومنها : كشفت الآيات الكريمة عن أهمية العلاقات الأسرية في النسيج الاجتماعي ، الذي يتكون منه المجتمع الإنساني الكبير وأنّ الحب في تلك العلاقات بين أفراد الأسرة هو الركيزة التي تقوم عليها ، والمحور الذي تتمحور حوله العائلة، نجد في النصوص القرآنية التي تدعو إلى الحب الأسري أعلى درجات البلاغة والفصاحة ؛ ولذلك تحققت فيها كل مقومات الإعجاز البياني، للنص القرآني تأثيره العجيب على القلوب بما لا يتوافر لنص آخر، ثم ذكرت فهرسًا للمصادر والمراجع، ثم فهرسًا للمحتويات.

الكلمات المفتاحية: الحب الأسري، أسرار التعبير، دراسة بلاغية ، القرآني ، تحليلية.

One of the secrets of the Qur’anic expression of family love (Analytical rhetorical study)

Heba Ismail Hassan Ibrahim
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arab Studies for Girls in Zagazig, Al-Azhar University, Arab .Republic of Egypt
Email: HEBAISMAIL.٦٧@AZHAR.EDU.EG

Research Summary
This study aims to explain the secrets of the Qur’anic expression of family love, to contemplate its structures and methods, to contemplate its meanings, and to try to reveal the significance of those rhetorical secrets and their graphic aspects. The study included an introduction, a preface, two sections, and a conclusion. The introduction included the importance of the topic, the reasons for choosing it, and its plan. And the approach you followed،
In the introduction, I presented the concept of love, innate and doctrinal love, the importance of the family in Islam, and the importance of love between family members. The study included two sections, namely, rhetorical secrets in the place of mentioning lowly family members, and rhetorical secrets in the place of mentioning non-good family members،
In the research, I used the inductive method to extrapolate the places in which the Qur’an talks about the family and its love, and the analytical method to extract the rhetorical secrets in its talk about family love, then the conclusion, which contains the most important results included in the study, including: The noble verses revealed the importance of family relationships in the social fabric, which The great human society is made up of it, and love in those relationships between family members is the foundation on which it is built
As for the axis around which the family is centered, we find in the Qur’anic texts that call for family love the highest levels of eloquence and eloquence. Therefore, all the elements of a graphic miracle were achieved in it. The Qur’anic text has an amazing effect on hearts that no other text has. Then I mentioned an index of sources and references, then an index of contents.

Keywords: Family Love, Secrets Of Expression, Rhetorical Study, Quranic, Analytical

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ هود: ٨٨

المقدمة

الحمد لله المنعم المتفضل الذي وسعت رحمته عباده، والصلاة والسلام على النبي الذي بعثه الله – عزَّ وجلَّ– مبشرًا ونذيرًا ، وعلى آله وصحبهِ أجمعين.

وبعد:–

فإن القرآن الكريم نزل وفق أسلوب أدبي خاص جعل البيئة الفنية التي عرف المجتمع بها حينئذ تستجيب استجابة المندهش إلى الأسلوب الفني الإبداعي المتمثل في نصوصه، والتي شكلت ظاهرة إعجازية.

والقرآن الكريم دستور الحياة السعيدة التي تتضح فيها المبادئ العامة للرسالة الإسلامية وما يرتبط بهذه الرسالة من عقائد وأحكام وأخلاق.

اعتبر الإسلام الحب قيمة عُليا في رسالته، وهدفًا ساميًا من أهدافه، يسعى بشتّى الوسائل لتحقيقه، وتكوينه في النفس البشرية، وإشاعته في المجتمع، وبناء الحياة على أساس الحبّ والمودّة.

أما الحب في الإسلام، فهو الحالة النفسية الشعورية التي تتوجه إلى شخص أو مجموعة على أساس إلهي محض، تمامًا كما أنّ البغض لا يكون إلاّ بناءً على أوامر إلهية محضة، تعبّدًا لله –عزّ وجل – ورقًا.

إنّ شجرة الحب الحقيقي بحسب مفهوم الإسلام، وما يتفرّع عنها من أغصان، هي التي جعلت الأسرة مترابطة متماسكة، يجل صغيرها كبيرها، ويرأف كبيرها على صغيرها.

فتماسكت الأسرة وتحابت وكان العطفُ والحنان والرعاية والتكافل هو الأساس والحكم، إلى درجة النهي عن قول أفٍ، أو النظرة الحادة المؤذية على الوالدين.

بل أكثر من ذلك: شاء الله – جلّ جلاله– أن يسري الحب الإلهي الذي أمرنا به إلى تمام الأرحام والقربات.

واستكمالًا لجهود الباحثين في إظهار الجوانب التعبيرية الإعجازية في القرآن الكريم فقد قمت بعد توفيق لله باختيار موضوع بعنوان : " من أسرار التعبير القرآني عن الحب الأسري (دراسة بلاغية تحليلية)".

أهمية البحث .

هذا البحث من الأهمية بمكان، بحيث يبحث جانبًا مهمًا من جوانب الإعجاز القرآني في نصوص الحب الأسري التي يظهر التعبير القرآني منها الجوانب المشرقة لهذه المعجزة الخالدة.

أسباب اختيار الموضوع:

١- تسليط الضوء على الآيات القرآنية التي بينت المنهج القرآني في حب الأسرة.

٢- أهمية القرآن الكريم في الدراسة البلاغية، فهو الأصل الأول من أصول العربية لما يتميز به من جلال المعاني وجمال المباني .

٣- ربط اللغة العربية بكتاب الله تعالى وبيان أن القرآن الكريم خير جليس وأعظم أنيس لا يمل حديثه.

٤- إظهار بعض الجوانب من أسرار التعبير القرآني وروعة بيانه، لأن الإنسان كلما أبحر فيه ازداد تعمقًا وتشوقًا وتعلقًا به.

٥- لعلي بتوفيق من الله أضيف دراسة نافعة للمكتبة الإسلامية يستفيد منها الباحثون وطلاب العلم.

أهداف البحث

١- إبراز أهمية النص القرآني وتـأثيره على القلوب .

٢- بيان ما تضمنته الآيات الكريمة من أهمية الحب الأسري.

٣- إبراز الفنون والأسرار البلاغية في آيات الحب الأسري.

٤- توضيح جماليات الأسلوب القرآني وبلاغته ودلائل إعجازه .

الدراسات السابقة : حسب اطلاعي وسؤال أهل الاختصاص؛ لم أجد – فيما أعلم- دراسة بلاغية خاصة بنماذج الآيات الواردة في الدراسة ، فكل الدراسات السابقة كانت تربوية ، وفقهية.

أما منهج البحث فقد كان في هذه الخطوات :

أولًا : الاستقراء التام : حيث قمت بتتبع الآيات التي تتعلق بالبحث وقمت بجمعها، والوقوف على مضمونها ، مع تكرار القراءة بتمعن.

ثانياً : تقسيم الآيات على حسب السياق المتصل بالبحث، وجمع الآيات التي تتلاقى في مقام واحد في مبحث على حدة، وتحليلها بلاغيًا .

ويمكن القول بأنني استخدمت المنهج التكاملي الكلي التحليلي الذي يعتمد على النظرة الكلية للنص القرآني، وتحليله في ضوء المقام الذي سيقت له الآيات القرآنية.

خطة البحث :

واقتضت طبيعة الدراسة أن تكون في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

في المقدمة : عرضت أهمية الموضوع ، وأسباب اختياري له ، وخطته ، والمنهج الذي سرت عليه.

وفي التمهيد: عرضت لمفهوم الحب ، والحب الفطري والعقدي ، وأهمية الأسرة في الإسلام وأهمية الحب بين أفراد الأسرة.

وجاء المبحث الأول بعنوان : الأسرار البلاغية في مقام ذكر أفراد الأسرة الأدنين.

والمبحث الثاني بعنوان : الأسرار البلاغية في مقام ذكر أفراد الأسرة غير الأدنين.

الخاتمة : وفيها أهم النتائج التي اشتملت عليها الدراسة، ثم ذكرت فهرسًا للمصادر والمراجع، ثم فهرسًا للمحتويات.

وأرجو أن تكون هذه الدراسة إضافة جديدة إلى حقل الدراسات البلاغية القائمة على تذوق النظم القرآني، ولهذا الغرض وعلى الله قصد السبيل، وهو ولي التوفيق.

التمهيد

أولًا:- التعريف بمفهوم الحب.

اختلف القدماء والمحدثون في تعريف الحب ،اختلافهم في النظر إليه، وتحديد مقاصدهم منه.

وتتفاوت أحوال الناس فيه على حسب رقة طباعهم كما يقول أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني أما اللغويون فقد عرفوه بأنه الوداد والمحبة [1].

وهو ميل إلى الأشخاص أوالأشياءالغريزة أو الجذابة أو النافعة [2].

أما دلالاتها اللغوية الأخرى فقد ذكرت في المعاجم أيضا، وحاول بعضهم ربطها بالدلالة المعنوية للحب منها:

- الصفاء والبياض ، ومنه حبب الأسنان ونضارتها .

-العلو والظهور ، ومنه حبب الماء وحبابه ، وهو ما يعلوه من النفاخات عند المطر ، وحبب الكأس منه .

- اللزوم والثبات ، ومنه حب البعير ، وأحب إذا برك ولم يقم.

- اللباب والخلوص ، ومنه حبة القلب للبه وداخله ، ومنه الحبة الواحدة الحبوب ؛ إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه [3].

هذه الدلالات اللغوية التي ربطها الفيروز آبادي ذكرتها المعاجم العربية ، ولكن ربطها بدلالات الحب تأتي سابقة عليه ؛ لأن الدلالات المادية تسبق المعنوية .

وعلى هذا اكتسب مفهوم الحب من الدلالات المادية معاني الظهور والصفاء واللزوم والثبات . وقد عرف الفيروز آبادي الحب جامعًا كل الدلالات السابقة بقوله عن المحبة" هي صفاء المودة ، وهيجان إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزومًا لا تفارق ، ولإعطاء المحب محبوبه لبه ، وأشرف ما عنده وهوقلبه، ولاجتماع عزماته وإرادته وهمومه على محبوبه "[4].

---

[1] لسان العرب (حبب).

[2] المعجم الوسيط ١/ ١٥٧.

[3] بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤١٧،٤١٦، ويُنظر بحث "حب الناس بعضهم بعضا لسعيد عبد الحفيظ حجاوي" ، المؤتمر الرابع عشر لجامعة آل البيت ص١.

[4] بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤١٧.

وربط الدلالات المادية بمعنى الحب ، جاعلا أصـــل الدلالات كلها الصـــفاء؛ لأن العرب "تقول لصفاء بياض الأسنان حبب الأسنان ، وقيل هي مأخوذة من الحباب- بالضم- وهو ما يعلو الماء عند المطر الشـديد، فعلى هذا تكون المحبة هي غليان القلب وثورانه عند الاحتياج إلى لقاء المحبوب، وقيل هي مشـــتقة من اللزوم والثبات ، ومن أحب البعير إذا برك ، ولم يقم فكأن المحب قد لزم قلبه محبوبه، فلم يرم عنه انتقالا ولا تحويلا " [1].

وعرف الراغب الأصفهاني المحبة بأنها إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا[2].

وميزوا بين الحب والمودة، فجعلوا الود صفو المحبة وخالصها ولبها ، وألطفها وأرقها وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة [3].

والمحبَّة لغةً:

المحبة: الحبُّ، وهو نقيضُ البغْضِ. وأصل هذه المادة يدلُّ على اللُّزوم وَالثَّبات، واشتقاقه من أَحَبَّه إذا لزمه، تقول: أَحبَبْتُ الشَّيْء فَأَنا مُحِبٌّ وَهو مُحَبٌّ[4].

المحبَّة اصطلاحًا:

(المحبَّة: (الميل إِلَى الشَّيْء السار)[5].

وقال الراغب: (المحبَّة: ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرًا).

وقال الهروي: (المحبَّة: تعلق القلب بين الهمة والأنس، فِي البَذْل وَالمنْع على الإِفْرَاد)[6].

ثانيًا:- الحب الفطري والعقدي.

والحب ينقسم إلى قسمين ؛ أحدهما : فطري غريزي ، والثاني : إيماني عقدي.

---

[1] صبابة المعاني ٩٩ ، ويُنظر : لغة الحب في القرآن الكريم ،المؤتمر العام الرابع عشر ٢٠٠٧.

[2] مفردات غريب القرآن،ص١١٢ .

[3] بصائر ذوي التمييز٢/ ٤٢١.

[4] ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٢٩٠).

[5] ((المعجم الوسيط)) (ص ١٥١).

[6] ((منازل السائرين)) (ص ٨٨).

فالحب الفطري أو الغريزي : هو ما يتعلق بالأقارب والأرحام ، كالوالدين والزوجة والأولاد والأخوة وسائر الأقارب والأرحام.

أما الحب الإيماني أو العقدي : فهو الذي توجبه العقيدة ، ويقابله البغض العقدي ، وهو مايعرف بالولاء والبراء أو الولاية والبراءة .

والولاية هي : القرب والقيام للغير بالأمر والنصر والاهتمام بالمصالح والحفظ والاتصال. أما البراءة فهي: البعد والتخلص.

وإنَّ العلاقات الأسرية تنبني على الحب الفطري الغريزي نظرًا إلى الحاجة إلى الترابط الأسري ، والتعاون والتراحم والتوادد بين الأقارب بعضهم البعض.

ثالثًا: أهمية الأسرة في الإسلام :-

ذكر اللهُ -عزَّ وجل- في القرآن الكريم، أهمية الأسرة في المجتمع ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾الروم: ٢١

وحث على الاهتمام بالأسرة بشكل كبير، وفي جميع الأديان التي أنزلها، فالأسرة هي أمرٌ مُجمعٌ عليه بين البشر، والمجتمع يعتمد بشكل أساسي على صلاح الأسرة لضمان صلاحه، إذ يتكوّن المجتمع من مجموعة من الأسر، والأسرة تتكون من الأفراد، وكل فرد في هذا المجتمع عليه أن يكون صالحاً، ولا يتحقّقُ ذلك إلا إذا نشأ هذا الفرد في أسرةٍ صالحة، وهذا لضمان صلاح المجتمع الإسلامي، فالأسرة المسلمة تُبنى على مبادئ وقيم وأخلاق الشريعة الإسلامية، وتتخللها المودة والرحمة، وهذا يُعين على التّربية السليمة والصحيحة، فالمجتمع يتكوّن من الأسرة والله -سبحانه وتعالى- أنزل الأحكام والأخلاق التي على الأسرة الالتزام بها والعمل بها؛ كي يخرج جيلٌ سليمٌ وصاحب فكر وخُلُقٍ كريم، فأساس التربية الأسرة، فإن فشل هذا الأساس فهذا الفشل سيؤدي إلى انهيار المجتمع وتراجعه لذلك على الآباء العنايةَ بالأسرةِ أشدّ عناية فهي أمانة في أعناقهم وسيحاسبون عليها يوم القيامة.

وللأسرةِ في المجتمعِ المسلمِ مكانتُها وأهميتُها؛ فهي المَحضن للأبناءِ وهي أساس التّربية والأخلاق والقِيَم، ومنها يعرِفُ الأبناءُ ما لهم من حقوقٍ وما عليهم من واجبات، ودوّر الأم أساسيٌّ في التربية، فهي مصدرُ الحبِّ والحنانِ والعطفِ والرَّاحة، أما الأب فهو القدوةُ والمَثَلُ الأعلى للأبناء، والمُعين والمرشد لهم.

رابعًا: - أهمية الحب بين أفراد الأسرة

يؤدي الحب دورًا مهمًا في حياة الإنسان ، فهو أساس الحياة الزوجية ، وتكوين الأسرة ، ورعاية الأبناء، وهو أ ساس التآلف بين الناس وتكوين العلاقات الإنسانية الحميمة وهو الرباط الوثيق الذي يربط الإنسان بربه ويجعله يخلص في عبادته وفي اتباع منهجه ، والتمسك بشريعته.

الحب هو الطريقة المُثلى، والوسيلة الناجحة في تربية وتنشئة الأبناء، فالتربية بالحب من أجود أنواع التربية الإيجابية الهادفة، فهي ملموسة الثمار، ومحصلة النجاح، ومن هنا يجب تنمية حبّ الآباء لأبنائهم حتى يتعلم وينشأ الأطفال على حب الوالدين فيكون تبادل الحب سبباً في استمرار ترابط الأسرة ودوام الاحترام والرعاية من الجانبين(١).

---

(١) الحب الأسري وأثره في نفسية الطفل ، د/ عبدالباري محمد داود- إيتراك للنشر والتوزيع- القاهرة -ط١ - (٢٠٠٥م) ص١٠٩-١١٢-بتصرف.

المبحث الأول:- الأسرار البلاغية في مقام ذكر أفراد الأسرة الأدنين.

أولًا:- حب الوالدين

الموضع الأول:-

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾الإسراء: ٢٣ - ٢٤

يخاطب الله تعالىٰ نبيه - صلىٰ الله عليه وسلم-، والمراد بالخطاب غيره، قائلا: أن تحسنوا إلىٰ الوالدين إحسانا، وإن يبلغ عندك الكبر أحد والديك أو كلاهما، فبرهما، ولا تسمعهما قولا سيئا، حتىٰ ولو كان التأفف، ولا تزجرهما، وقل لهما قولا كريما حسنا، وكن لهما ذليلا متواضعا؛ رحمة بهما، وادع الله أن يرحمهما أحياء وأمواتا، كما صبرا علىٰ تربيتك حال صغرك و ضعفك.- (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ).

أي: وأمر ربك -يا محمد- ووصىٰ، وأوجب ألا تعبدوا -أنت وجميع الخلق- إلا الله وحده [1].

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).

أي: وأمركم الله بأن تحسنوا إلىٰ الوالدين بجميع أوجه الإحسان من الأقوال والأفعال.

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ)

أي: إن عاش والداك عندك، وقد كبرت سنهما وضعفت قواهما؛ أحدهما أو كلاهما، فلا تتأفف؛ إظهارا لضجرك مما يؤذيك منهما، ولا تؤذهما بأي نوع من الأذىٰ.

(وَلَا تَنْهَرْهُمَا).

أي: ولا تزجر والديك، وتغلظ لهما القول.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤١)، و ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٧)، و ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، و ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٠)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦)، و ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٦).

(وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا).

أي: وقُلْ لهما قَولًا حَسَنًا لَيِّنًا رَقيقًا جَميلًا يُفرِحُهما، فيه تأدُّبٌ معهما، وتلَطُّفٌ لهما[1].

(وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ).

أي: وكنْ لوالِدَيك ذليلًا مُتواضِعًا؛ رَحمةً منك بهما، ولا تُخالِفْهما فيما يأمُرانِك به ويَنهيانِك عنه مِمَّا ليس فيه مَعصيةٌ لله تعالى[2]

(وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا).

أي: وقُلْ: رب ارحم والدي في حياتهما وبعد موتهما ؛ جزاء لهما على تربيتهما لي في صغري، وحال ضعفي وعجزي وافتقاري.

وقولُه تعالى:(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) عطف على الكلام السابق عطف غرض على غرض؛ تخلصا إلى أعمدة من شريعة الإسلام، بمناسبة الفذلكة المتقدمة؛ تنبيها على أن إصلاح الأعمال متفرع على نبذ الشرك .

- قولُه: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) جيء بخطاب الجماعة؛ لأن النهي يتعلق بجميع الناس، وهو تعريض بالمشركين .

- وقدَّم ذكرَهما، فقال(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)، ولم يقُلْ: (وإحسانًا بالوالِدَينِ) ليدل على شدة الاهتمام، والاعتناء بهما، فقوله: وبالوالدين متعلق بقوله: إحسانا، لكنه قدمه على متعلقه .

- قولُه: (إِحْسَانًا) بلفظ التنكير، والتنكير يدل على التعظيم، أي: إحسانا عظيما كاملا .

و (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) عطف الأمر بالإحسان إلى الوالدين على ما هو في معنى الأمر بعبادة الله؛ لأن الله هو الخالق، فاستحق العبادة؛ لأنه أوجد الناس، ولما جعل الله الأبوين مظهر إيجاد الناس أمر بالإحسان إليهما؛ فالخالق مستحق العبادة لغناه عن الإحسان، ولأنها أعظم الشكر على أعظم منة،

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٨)، و((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٣)، و((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، و((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٢-٤٠٣)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٠)، و((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، و((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

و سبب الوجود دون ذلك، فهو يستحق الإحسان لا العبادة؛ لأنه محتاج إلى الإحسان دون العبادة، ولأنه ليس بموجد حقيقي، ولأن الله جبل الوالدين على الشفقة على ولدهما، فأمر الولد بمجازاة ذلك بالإحسان إلى أبويه .

وهنا قال (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) وليس إلى الوالدين:

الأصل في الإحسان أن يكون بـــ (إلى) ، يبقى سبب المجيء بالباء: فيها أكثر من تخريج نحوي وينسحب عليه البياني، والإحسان إلى عامة أما الإحسان بهما أي إلصاق الإحسان بهما ، مثل كتبت بالقلم ، تعود إلى الالتصاق سواء بالاستعانة أو غير الاستعانة .

يعني ألصق إحسانك بهما وليس مجرد الإحسان من بعيد- لا يفي بالغرض، وقسم جعل معناها اللطف أي ألطف بهما، هذا تضمين لفظي، كقول يوسف (وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ(١٠٠) يوسف) معناها هنا اللطف فالله أحسن إلى الناس جميعاً لكن هذا إحسان خاص .

واختيار(وَبِالْوَالِدَيْنِ) وليس بالأبوين:

أصل الوالد من الولادة ، والأصل أن المرأة التي تلد وليس الرجل ولكنه تغليب، ولذلك الرجل يقال عنه أبّ، ولكن العرب غلّبت وقالت والد ووالدة ، كما أن الأبوين تغليب للأبّ وليس للأم . وتأتي بالغالب مذكر الوالدان مثل القمران أي الشمس والقمر، فالوالدين تغليب للأم والأبوين تغليب للأبّ، وفي الآية ذكر الوالدين وفي القرآن كله لم يأتي البرّ بهما أو الدعاء لهما إلا بلفظ الوالدين، لم يرد بلفظ الأبوين (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) (وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا(٣٦)النساء) ((وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ) لو يرد مرة بأبويه (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ(٢٨) نوح) لم يأتي الدعاء لهما أو البر بهما إلا بلفظ الوالدين إلماح إلى الولادة وفي ذلك إلماح إلى أن الأم أحق وأولى بحسن الصحبة ، لكن الأب يأتي في مواضع أخرى كالمواريث لأن نصيبه أكبر (وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ(١١)النساء)؛ لأن نصيب الأب أكبر من نصيب الأم.

- وجُملةُ (إِمَّا يَبْلُغَنَّ) بيان لجملة إحسانا، والخطاب لغير معين؛ فيعم كل مخاطب، بقرينة العطف على ألا تعبدوا إلا إياه، وذلك على أحد القولين في المخاطب.

وتأمل إيثار ضمير المفرد -ربك- هنا دون ضمير الجمع؛ لأنه خطاب يختص بمن له أبوان من بين الجماعة المخاطبين بقولِه: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)؛ فكان الإفراد أنسب به، وإن كان الإفراد والجمع سواء في المقصود؛ لأن خطاب غير المعين يساوي خطاب الجمع، وخص هذه الحالة بالبيان؛ لأنها مظنة انتفاء الإحسان بما يلقىٰ الولد من أبيه وأمه من مشقة القيام بشؤونهما، ومن سوء الخلق منهما .

- ووجه تعدد فاعل يبلغن مظهرا دون جعله بضمير التثنية بأن يقال: (إمَّا يَبْلغانِّ عندك الكبرَ): الاهتمام بتخصيص كل حالة من أحوال الوالدين بالذكر، ولم يستغن بإحدىٰ الحالتين عن الأخرىٰ؛ لأن لكل حالة بواعث علىٰ التفريط في واجب الإحسان إليهما، فقد تكون حالة اجتماعهما عند الابن تستوجب الاحتمال منهما، لأجل مراعاة أحدهما الذي الابن أشد حبا له، دون ما لو كان أحدهما منفردا عنده بدون الآخر الذي ميله إليه أشد؛ فالاحتياج إلىٰ ذكر أحدهما في هذه الصورة؛ للتنبيه علىٰ وجوب المحافظة علىٰ الإحسان له.

وقد تكون حالة انفراد أحد الأبوين عند الابن أخف كلفة عليه من حالة اجتماعهما، فالاحتياج إلىٰ أو كلاهما في هذه الصورة للتحذير من اعتذار الابن لنفسه عن التقصير بأن حالة اجتماع الأبوين أحرج عليه، فلأجل ذلك ذكرت الحالتان، وأجري الحكم عليهما علىٰ السواء، فكانت جملة (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) بتَمامِها جوابًا لـ (إِمَّا)[1] .

- قولُه: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا...) أكد فعل الشرط بنون التوكيد؛ لتحقيق الربط بين مضمون الجواب، ومضمون الشرط في الوجود .

- قولُه: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) ليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما: (أف) خاصة، وإنما المقصود النهي عن الأذىٰ الذي أقله الأذىٰ باللسان بأوجز كلمة، ثم عطف عليه النهي عن نهرهما؛ لئلا يحسب أن ذلك تأديب لصلاحهما، وليس بالأذىٰ.

ولفظة(قضىٰ) تخلع علىٰ الأمر معنىٰ التوكيد ، إلىٰ جانب القصر الذي يفيده النفي والا ستثناء (ألا تعبدوا إلا إياه) فتبدو في جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد .

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٩).

ثم ارتقى في الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهما تواضعا يبلغ حد الذل لهما؛ لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد؛ لأن الأبوين ينبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما، والقصد من ذلك التخلق بشكره على إنعامهما السابق عليه .

- قولُه: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...) فيه مناسبة حسنة؛ فهذه الآيات أول تفصيل للشريعة للمسلمين وقع بمكة، وأن ما ذكر في هذه الآيات مقصود به تعليم المسلمين؛ ولذلك اختلف أسلوبه عن أسلوب نظيره في سُورةِ (الأنعامِ) -في قولِه: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...) الآياتِ [الأنعام: ١٥١- ١٥٣] - الذي وجه فيه الخطاب إلى المشركين لتوقيفهم على قواعد ضلالتهم؛ فمن الاختلاف بين الأسلوبين: أن هذه الآية افتتحت بفعل القضاء المقتضي الإلزام، وهو مناسب لخطاب أمة تمتثل أَمْرَ ربِّها، وافتُتِحَ خطابُ سُورةِ (الأنعامِ) بـ(تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ).

ومنها: أن هذه الآية جعلت المقضي هو توحيد الله بالعبادة؛ لأنه المناسب لحال المسلمين، فحذرهم من عبادة غير الله، وآية (الأنعام) جعلت المحرم فيها هو الإشراك بالله في الإلهية المناسب لما كانوا عليه من الشرك؛ إذ لا عبادة لهم.

بهذه العبارات الندية ، والصور الموحية ، يستجيش القرآن الكريم وجدان البرّ والرحمة في قلوب الأبناء ؛ ذلك أنّ الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام . إلى الذرية . إلى النا شئة الجديدة . إلى الجيل المقبل ، وقلّما توجّه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة . إلى الحياة المولية . إلى الجيل الذاهب !

ومن ثَمّ تحتاج البنُوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات ، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر ؛ كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلها الأجل - وهما مع ذلك سعيدان !

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ، ويندفعون بدروهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية. وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثَمّ لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف !

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله .

ثم يأخذ السياق في تظليل الجو كله بأرق الظلال ؛ وفي استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان.

- قَولُه تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

- قولُه: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) خفض الجناح كناية عن حسن التدبير؛ لأن الطائر إذا ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، وكأنه قيل للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك، كما فعلا ذلك بك حال صغرك.

أو يكون خفض الجناح كناية عن فعل التواضع؛ لأن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه [1] .

- وبولغ بذكر الذل هنا، ولم يذكر في قولِه: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الشعراء: ٢١٥] ؛ وذلك بسبَبِ عِظَمِ حَقِّ الوالِدَينِ .

- قولُه: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) فيه إضافة الجناح إلى الذل -أو إلى الذل- للبيان والمبالغة، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: (واخفِضْ لهما جَناحَك الذَّليلَ، أو الذَّلولَ)، وفيه مبالغة؛ لأنه وصف بالمصدر، فكأنه جعل الجناح عين الذل.

أو يجعل لذله -أو لذله- جناحا خفيضا؛ مبالغة في التذلل والتواضع لهما.

وسر ذكر الجناح وخفضه، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس .

---

[1] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧)، و ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٦).

- قولُه: (مِنَ الرَّحْمَةِ) التعريف في الرحمة عوض عن المضـــاف إليه، أي: من رحمتك إياهما، و(من) ابتدائية، أي: الذل الناشـــئ عن الرحمة لا عن الخوف أو عن المداهنة، والمقصـــود: اعتياد النفس على التخلق بالرحمة باستحضار وجوب معاملته إياهما بها حتى يصير له خلقا، كما قيل:

إن التخلق يأتي دونه الخلق .

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] .

فالاســـتعارة في النص الكريم وردت في قوله (واخفض جناحك)؛ لأن الطائر إذا أراد أن ينحط خفض جناحه وإذا أراد أن ينهض رفعه وهو مستعار من حال الطائر.[2] فالآية استعارة مكنية، فأنه لم يقل جناح الذل فالرسول محمد - ﷺ - أمر بخفض جناحه وهو جانبه أما الولد أمر بخفض جناحه ذلاً فلابد مع خفض جناحه أن يذل لأبويه وهذا بخلاف الرسول- ﷺ - فانه لم يؤمر بالذل فاقتران ألفاظ القرآن تدل على اقتران معانيه وإعطاء كل معنى حقه، فضلاً عن أنّه سبحانه كمل ذلك بقوله (من الرحمة) فهو جناح ذل من الرحمة لاجناح ذل من العجز والضـــعف فيكون الأول محموداً والثاني مذموماً[3] وعدَّ أبو حيان الآية كناية عن التواضـــع.[4] ونراه تأويلاً ضـــعيفاً، ونحن نرى أن الآية استعارة مكنية، وقد تمثلت القيمة الأسلوبية للبنية الاستعارية في التضاد ما بين اللفظ ودلالته فقد خرج اللفظ عن معناه الظاهر إلى معانٍ مليئة بالإيحاء بعيدة عن التقريرية فالاســـتعارة ذات فاعلية أدبية أسلوبية.

وقال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] .

---

[1] الشعراء/ ٢١٥.

[2] ينظر: التفسير الكبير ٢٤/ ١٧٣، إرشاد العقل السيلم ٤/ ١٨١، محاسن التأويل ١٣/ ٤٦٤٨ .

[3] ينظر: منهج ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم/ ١٣١.

[4] ينظر: البحر المحيط ٧/ ٤٦.

[5] الحجر/ ٨٨.

فالناظر إلى الآية الكريمة يلمس أنها مشتملة على الاستعارة ويخبرنا الشريف الرضي أنها استعارة والمراد بها ألن كنفك لهم [1] .

أما الزمخشري فذهب إلى أنَّ الطائر إذا انحطّ كُسر جناحه، وإذا نهض رفعه ولم يذكر لفظ الاستعارة صراحة[2]، واختلف الرازي عن هذا المنحنى وجعل خفض الجناح كناية على اللين والتواضع [3].

فالجناح كما يرى ابن جزي استعارة [4] ، ويذهب أحد الباحثين إلى أنّ الاستعارة تصريحية؛ إذ يقول: "المعنى في الجميع: أَلِن جانبك لهم، فالمُستعار منه هو الطائر، والمُستعار له: الشخص المقصود بالخطاب، والمُستعار خفض الجناح، والمراد: لين الجانب والتواضع، فالاستعارة تصريحية أصلية وهي استعارة محسوس لمحسوس بوجه معقول" [5] .

والرأي الذي نؤيده أنّ الاستعارة مكنية وليست تصريحية وذلك توافقاً مع طبيعة السياق الذي وردت فيه الآية فالنص حمل عنصر المفاجأة بأن يعدل بسياق الآية من المعنى المتعارف والطبيعي إلى دلالات أخرى تكثف المعنى وتوجزه.

- قولُه: (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) الكاف في قوله: كما ربياني صغيرا للتشبيه، وهو ما يعبر عنه بمعنى التعليل في الكاف، والمقصود من التشبيه تمثيل حالة خاصة فيها الإشارة إلى تربية مكيفة برحمة كاملة؛ فإن الأبوة تقتضي رحمة الولد، وصغر الولد يقتضي الرحمة به، ولو لم يكن ولدا؛ فصار قوله: كما ربياني صغيرا قائما مقام قولِه: (كما ربَّياني ورَحِماني) بتربيتهما؛ فالتربية تكملة للوجود، وهي وحدها تقتضي الشكر عليها.

---

[1] ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن/ ١٠٣.

[2] الكشاف ٢/ ٣٩٧-٣٩٨، وينظر: النظم القرآني في كشاف الزمخشري/ ١٦١.

[3] ينظر: التفسير الكبير ١٩/ ٢١١.

[4] ينظر: كتاب التسهيل ٢/ ١٤٩.

[5] أساليب المجاز في القرآن الكريم/ ٢٥٠.

والرحمة حفظ للوجود من اجتناب انتهاكه، وهو مقتضى الشكر؛ فجمع الشكر على ذلك كله بالدعاء لهما بالرحمة [1].

وقيل: (ما) في (كَمَا): مصدرية، والوقت فيه مقدر، أي: ارحمهما في وقت أحوج ما يكونان إلى الرحمة من جميع الأوقات، كوقت رحمتهما علي وأنا في حالة الصغر.

وليس ذلك إلا في القيامة، والرحمة هي الجنة، وقيل: إن الكاف في (كَمَا رَبَّيَانِي)؛ لتأكيدِ الوُجودِ، أي: لتاكيدِ وُجودِ الرحمةِ، أي: أوجد رحمتهما إيجادا مؤكدا محققا، كما أوجد الوالدان التربية إيجادا محققا في الزمان الماضي.

- وخص التربية بالذكر؛ ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقا لهما، وحنانا عليهما [2].

الموضع الثاني:-

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأحقاف: ١٥

يأمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين، ويبين ما يترتب عليه من ثواب، فيقول: ووصينا الإنسان أن يحسن إلى والديه إحسانا؛ حملته أمه كارهة، ووضعته كارهة؛ لما تعانيه في أثناء حملها ووضعها من المشاق والآلام والمتاعب، ومدة حمل الجنين مع مدة فطامه من الرضاع ثلاثون شهرا. حتى إذا بلغ الولد شدة قوته وكمال عقله، وبلغ أربعين سنة؛ قال: رب ألهمني ووفقني لأن أشكر نعمتك التي أنعمت بها علي وعلى والدي، وأن أعمل عملا صالحًا تقبله مني، وأصلح لي ذريتي، واهدهم للإيمان والعمل الصالح، إني تبت إليك وإني من المسلمين.

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا).

---

[1] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩)، و ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٣).

[2] يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٤).

أي: وأمرنا الإنسان وعهدنا إليه عهدا أن يحسن إلى والديه ويبرهما [1].

فهي وصية لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته، بدون حاجة إلى أيّة صفة أخرى وراء كونه إنسانا.

وهي وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد.

فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك.

وهي وصية صادرة من خالق الإنسان، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضا.

فما يعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها. والمشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس؛ فهي وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان.

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا).

أي: حملته أمه في بطنها فقاست في ذلك مشقة شديدة جعلتها كارهة لأحوال ذلك الحمل؛ من الثقل، والغثيان، والضعف، وغير ذلك [2].

(وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا).

أي: وتضع مولودها بآلام شديدة ومشقة عظيمة تجعلها كارهة لوضعه [3].

(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا).

أي: ومدة حمل الجنين في بطن أمه مع مدة فطامه من الرضاع تبلغ ثلاثين شهرًا.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، و ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، و((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٧)، و((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، و ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩)، و((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٢، ٢٢٣).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٧)، و ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، و ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩)، و((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٣).

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال : (حملته أمه كرها . ووضعته كرها) . . لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ، ويلهث بالأنفاس ! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه وآلامه !

(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ).

أي: حتى إذا بلغ الولد شدة قوته وكمال عقله، وذلك في سن الشباب.

(وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً).

أي: وبلغ أربعين سنة، فكمل حينها عقله وقوته، وتكاملت حجة الله عليه.

(قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ).

أي: قال: رب ألهمني ووفقني لإنّ أشكر ما أنعمت به علي، وعلى أبي وأمي.

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ).

أي: وألهمني ووفقني لأن أعمل عملا صالحا يرضيك عني، وتقبله مني.

(وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي).[1]

أي: وأصلح لي نسلي وعقبي بأن تهديهم للإيمان والعمل الصالح، وتصلح أحوالهم.

(إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ).

أي: إني تبت إليك من ذنوبي السابقة، ورجعت إلى طاعتك.

(وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ).[2]

أي: وإني من المستسلمين لك بالتوحيد، المنقادين لحكمك، الخاضعين لك بالطاعة في أمرك ونهيك.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، و ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١)، و ((تفسير الآلوسي)) (١٣/ ١٧٦)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، و((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

وقولُه تعالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

- الفِصالُ: الفِطامُ، وذُكِرَ الفِصالُ؛ لأنَّه انتهاءُ مُدَّةِ الرَّضاعِ؛ فذُكِرَ مَبدأُ مُدَّةِ الحمْلِ بقَولِه: (وَحَمْلُهُ)، وانتِهاءُ الرَّضاعِ بقَولِه: وَفِصَالُهُ.

ولو قِيل: (وحَمْلُه وفِطامُه ثلاثونَ شَهرًا) لم يكُنْ نَصًّا في الرَّضاعِ التَّامِّ المُنتهي بالفِصالِ، والمعنىٰ: وحَمْلُه وفِصالُه بيْنَهما ثَلاثونَ شَهْرًا [1].

- قولُه: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) (حتَّىٰ) ابتدائية، ومعناها معنىٰ فاء التفريع علىٰ الكلام المتقدم، وإذ كانت (حتَّىٰ) لا يفارقها معنىٰ الغاية، كانت مؤذنة هنا بأن الإنسان تدرج في أطواره من وقت فصاله إلىٰ أن بلغ أشده، أي: هو موصىٰ بوالديه حسنا في الأطوار الموالية لفصاله، أي: يوصيه وليه في أطوار طفولته، ثم عليه مراعاة وصية الله في وقت تكليفه.

ووُقوعُ (إذا) بعْدَ (حتَّىٰ)؛ ليرتب عليها توقيت ما بعد الغاية من الخبر، أي: كانت الغاية وقت بلوغه الأشد [2].

- وفي الكلامِ حَذْفٌ تكونُ (حتَّىٰ) غايةً له، تقديره: فعاش بعد ذلك، أو استمرت حياته.

- ولمَّا كان (إذا) ظرفا لزمن مستقبل كان الفعل الماضي بعدها منقلبا إلىٰ الاستقبال، وإنما صيغ بصيغة الماضي؛ تشبيها للمؤكد تحصيله بالواقع، والمعنىٰ: حتىٰ يبلغ أشده، أي: يستمر علىٰ الإحسان إلىٰ والديه إلىٰ أن (يَبلُغَ أشُدَّه)، فإذا بَلَغَه (قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي)، أي: طلب العون من الله تعالىٰ علىٰ زيادة الإحسان إليهما؛ بأن يلهمه الشكر علىٰ نعمه عليه وعلىٰ والديه، ومن جملة النعم عليه أن ألهمه

---

[1] يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، و ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، و ((حاشية الطيبي علىٰ الكشاف)) (١٤/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠)، و((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢، ٨٣)، و((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١).

الإحسان لوالديه، ومن جملة نعمه علىٰ والديه أن سخر لهما هذا الولد ليحسن إليهما؛ فهاتان النعمتان أول ما يتبادر عن عموم نعمة الله عليه وعلىٰ والديه؛ لأن المقام للحديث عنهما، وهذا إشـارة إلىٰ أن الفعل المؤقت ببلوغ الأشد -وهو فعل (قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي)- من جملة ما وصي به الإنسان، أي: أن يحسن إلىٰ والديه في وقت بلوغه الأشد؛ فالمعنىٰ: ووصينا الإنسان حسنا بوالديه حتىٰ في زمن بلوغه الأشد، أي: ألا يفتر عن الإحسان إليهما بكل وجه حتىٰ بالدعاء لهما .

وإنما خص زمان بلوغ الإنسـان الأشـد؛ لأنه زمن يكثر فيه الكلف بالسـعي للرزق؛ إذ يكون له فيه زوجة وأبناء، وتكثر تكاليف المرأة، فيكون لها فيه زوج وبيت وأبناء، فيكونان مظنة أن تشـغلهما التكاليف عن تعهد والديهما والإحسان إليهما؛ فنبهما بألا يفترا عن الإحسان إلىٰ الوالدين.

- الأشـد: قيل: وقته ما بعد الثلاثين سـنة، وتمامه عند الأربعين سـنة؛ ولذلك عطف علىٰ بلغ أشـده قوله: (وبلغ أربعين سنة)، أي: بلغ الأشد ووصل إلىٰ أكمله، وليس قوله: (وبلغ أربعين سنة) تأكيدا لقوله: بلغ أشده؛ لأن إعادة فعل (بلغ) تبعد احتمال التأكيد، وحرف العطف أيضا يبعد ذلك الاحتمال .

- ومعنىٰ (قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى) أنه دعا ربه بذلك، ومعناه: أنه مأمور بالدعاء إليهما؛ بأنه لا يشـغله الدعاء لنفسـه عن الدعاء لهما، وبأنه يحسـن إليهما بظهر الغيب منهما حين مناجاته ربه؛ فلا جرم أن إحسانه إليهما في المواجهة حاصل بفحوىٰ الخطاب .

- قولُه: (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ) التنكير في قوله: صالحا ترضاه؛ للتفخيم والتكثير، أو لأنه أراد نوعا من الجنس يستجلب رضا الله -عز وجل-.

وقيل: في تنكير صالحا إشارة إلىٰ العجز عن بلوغ الغاية؛ فإنه لن يقدر الله حق قدره أحد [1] .

- قولُه: (وَأَصْـلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى) في إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريته، مع أن سياق الكلام في الإحسـان إلىٰ الوالدين: إيماء إلىٰ أن المرء يلقىٰ من إحسـان أبنائه إليه مثل ما لقي أبواه من إحسـانه إليهما، ولأن دعوة الأب لابنه مرجوة الإجابة [2] .

---

[1] يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٩).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

- واللَّامُ في (وَأَصْلِحْ لِي) لَامُ العِلَّةِ، أي: أصلح في ذريتي لأجلي ومنفعتي، ونكتة زيادة هذا في الدعاء: أنه بعد أن أشار إلى نعم الله عليه وعلى والديه، تعرض إلى نفحات الله، فسأله إصلاح ذريته، وعرض بأن إصلاحهم لفائدته، وهذا تمهيد لبساط الإجابة؛ كأنه يقول: كما ابتدأتني بنعمتك، وابتدأت والدي بنعمتك، ومتعتهما بتوفيقي إلى برهما؛ كمل إنعامك بإصلاح ذريتي؛ فإن إصلاحهم لي. وهذه ترقيات بديعة في درجات القرب .

- وكان الظَّاهرُ أنْ يُقالَ: (أصلِحْ لي ذُرِّيَّتي)؛ لأنَّ الإصلاحَ مُتعَدٍّ، كما في قَولِه تعالى: (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) [الأنبياء: ٩٠] ، ولكنَّ قال هنا: (وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي) فعُدِّيَ بـ (في)؛ لتضمنه معنى اللطف، أي: الطف بي في ذريتي، أو نزل منزلة اللازم ثم عدي بـ (في)؛ ليفيد سريان الصلاح فيهم، وكونهم كالظرف له؛ لتمكنه فيهم [1] .

- وجُملةُ (إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) كالتعليل للمطلوب بالدعاء تعليل توسل بصلة الإيمان، والإقرار بالنعمة والعبودية، وحرف (إن) للاهتمام بالخبر، وقد أغنى غناء الفاء [2] .

الموضع الثالث:-

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾لقمان: ١٤ - ١٥

يقول الله تعالى مبينا علو منزلة الوالدين: وعهدنا إلى الإنسان ببر والديه والإحسان إليهما؛ ثم يبين سبحانه السبب الموجب لذلك، فيذكر ما بذلته الأم من جهد يوجب الإحسان إليها، فيقول: حملته أمه في بطنها، وعانت في حمله ضعفا على ضعف، وثقلا و شدة، وفطامه في عامين من ولادته، وو صينا الإنسان بالشكر لله تعالى، ولوالديه؛ فإلى الله وحده لا إلى غيره المرجع والمآب، فيسألك -أيها الإنسان- عن شكره وشكر والديك، ويجازيك على عملك.

---

[1] يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٩)، و((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٧).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤).

ثم يبين الله سبحانه حدود الطاعة للوالدين، فيقول: وإن كان والداك مشركين، وجاهداك على أن تشرك بالله ما لا برهان على صحة ألوهيته؛ فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا مصاحبة حسنة.

ثم يرشد سبحانه إلى وجوب اتباع أهل الحق، فيقول: واسلك طريق الذين تابوا إلي، واقتد بهم، ثم إلي مصيركم جميعا -أيها الناس- فأنبئكم بجميع أعمالكم، وأجازيكم عليها.

- قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ).

- الآيتانِ (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ن ـ ووَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي) كلام مستأنف، اعترض به على نهج الاستطراد في أثناء وصية لقمان؛ تأكيدا لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: (وقد وصَّيْنا بمِثلِ ما وصَّى به) .

وذَكَرَ(الوالدينِ)؛ للمبالغة في ذلك؛ فإنهما مع أنهما تلو الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه في الإشراك، فما ظنك بغيرهما ؟![1].

- وهذا الكلام اعتراض بين كلامي لقمان؛ لأن صيغة هذا الكلام مصوغة على أسلوب الإبلاغ والحكاية لقول من أقوال الله، والضمائر ضمائر العظمة جرته مناسبة حكاية نهي لقمان لابنه عن الإشراك وتفظيعه بأنه ظلم عظيم، فذكر الله هذا؛ لتأكيد ما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بتعميم النهي في الأشخاص والأحوال؛ لئلا يتوهم متوهم أن النهي خاص بابن لقمان أو ببعض الأحوال؛ فحكى الله أن الله أوصى بذلك كل إنسان، وأن لا هوادة فيه ولو في أحرج الأحوال؛ وهي حال مجاهدة الوالدين أولادهم على الإشراك.

وأحسن من هذه المناسبة: أن تجعل مناسبة هذا الكلام أنه لما حكى وصاية لقمان لابنه بما هو شكر الله بتنزيهه عن الشرك في الإلهية؛ بين الله أنه تعالى أسبق منة على عباده؛ إذ أوصى الأبناء ببر الآباء؛ فدخل في العموم المنة على لقمان جزاء على رعيه لحق الله في ابتداء موعظة ابنه، فالله أسبق بالإحسان إلى الذين أحسنوا برعي حقه.

---

[1] يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤).

ويقوي هذا التفسير اقتران شكر الله وشكر الوالدين في الأمر[1] .

- وجُملةُ (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ) في موضع التعليل للوصاية بالوالدين؛ قصدا لتأكيد تلك الوصاية؛ لأن تعليل الحكم يفيده تأكيدا، ولأن في مضمون هذه الجملة ما يثير الباعث في نفس الولد على أن يبر بأمه ويستتبع البر بأبيه.

وإنما وقع تعليل الوصاية بالوالدين بذكر أحوال خاصة بأحدهما -وهي الأم-؛ اكتفاء بأن تلك الحالة تقتضي الوصاية بالأب أيضا للقياس؛ فإن الأب يلاقي مشاق وتعبا في القيام على الأم؛ لتتمكن من الشغل بالطفل في مدة حضانته، ثم هو يتولى تربيته والذب عنه حتى يبلغ أشده ويستغني عن الإسعاف، كما قال تعالى: (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا)[الإسراء: ٢٤] فجمعهما في التربية في حال الصغر مما يرجع إلى حفظه وإكمال نشأته، فلما ذكرت هنا الحالة التي تقتضي البر بالأم من الحمل والإرضاع، كانت منبهة إلى ما للأب من حالة تقتضي البر به على حساب ما تقتضيه تلك العلة في كليهما قوة وضعفا.

وقد نبَّه على هذا القياسِ تشريكهما في الحكم عقب ذلك بقولِه: (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)، وقولِه: (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)، وحصَلَ مِن هذا النَّظمِ البديعِ قَضاءُ حقِّ الإيجازِ[2] .

- وأيضًا قولُه: (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) اعتِراضٌ بيْنَ المفسَّرِ والمُفسِّرِ، بين الوصية والموصى به، وهو اعتراض في أعلى درجات الحسن؛ لأنه لما وصى بالوالدين، ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة؛ إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا، وتذكيرا بحقها العظيم مفردًا[3] .

- وانتصَبَ (وَهْنًا) على الحالِ مِن أُمُّهُ؛ مُبالَغةً في ضَعْفِها، حتَّى كأنَّها نفْسُ الوهْنِ.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٦، ١٥٧).

[2] ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٦٤).

[3] يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤، ٤٩٥)،و((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، و ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، و ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٤)،

- وذكَرَ لِمُدَّةِ فِطامِه أقْصاها -وهي عامانِ-؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ بالتَّرقيقِ على الأمِّ .

- وجُملةُ (أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) تَفسيرٌ لِفعلِ (وصَّينا)، وما بينهما اعتراض مؤكد للوصية في حقها خاصة، وإنما فسرت الوصية بالوالدين بما فيه الأمر بشكر الله مع شكرهما على وجه الإدماج ؛ تمهيدا لقوله: (وإن جاهداك على أن تشرك بي)[1] .

ويقول الله تعالى في نهاية الآية بنبرة لا تخلو من التهديد والعتاب: (إليّ المصير).

نعم، فإنّك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كلّ هذه الحقوق والمصاعب والخدمات بدقّة فيجب على الإنسان أن يؤدّي ما عليه من شكر مواهب الله.

وكذلك شكر نعمة وجود الأبوين وعواطفهما الصادقة الطاهرة لينجح في ذلك الحساب وتلك المحكمة.

وفي هذا المجال التفت بعض المفسّرين إلى مسألة لطيفة، وهي أنّه قد ورد التأكيد على رعاية حقوق الأبوين مراراً في القرآن المجيد، إلاّ أنّ التوصية بالأولاد تلاحظ قليلا - ما عدا مورد النهي عن قتل الأولاد، والتي كانت عادةً مشؤومة قبيحة وإستثنائية في عصر الجاهلية - وذلك لأنّ الوالدين، وبحكم عواطفهما القويّة، قلّ ما يهملوا أولادهما بيد النسيان، في حين يلاحظ بكثرة أنّ الأولاد ينسون الأبوين، وخاصّة عند الكبر والعجز، وتعتبر هذه آلم وأشدّ حالة لهما، وأسوأ صور كفران النعمة بالنسبة للأولاد.

إنّ الوصيّة بالإحسان إلى الأبوين قد توجد الإشتباه والوهم عند البعض وذلك حينما يظنّ أنّه يجب مداراتهما واتّباعهما حتّى في مسألة العقيدة والكفر والإيمان، لكنّ الآية التالية تقول: (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) فيجب أن لا تكون علاقة الإنسان بأُمّه وأبيه مقدّمة على علاقته بالله مطلقاً، وأن لا تكون عواطف القرابة حاكمة على عقيدته الدينيّة أبداً.

- وجُملةُ (إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ) استئناف للوعظ، والتحذير من مخالفة ما أوصى الله به من الشكر له . وتعليل أيضا لوجوب الامتثال، أي: إليّ الرجوع لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر .

- وتَعريفُ المصيرِ في قولِه: (إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ) تعريفُ الجِنسِ، أي: مصير الناس كلهم.

---

[1] نظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢)، و ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

ولك أن تجعل (أل) عوضا عن المضاف إليه. وتقديم المجرور للحصر، أي: ليس للأصنام مصير في شفاعة ولا غيرها .

- قوله تعالى:(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

المقصودُ من هذا الكلام -وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ... إلى قولِه: فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ- هو قولُه: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي) إلى آخره، وما قبله تمهيد له، وتقرير لواجب بر الوالدين؛ ليكون النهي عن طاعتهما إذا أمرا بالإشراك بالله نهيا عنه في أولى الحالات بالطاعة؛ حتى يكون النهي عن الشرك فيما دون ذلك من الأحوال مفهوما بفحوى الخطاب ، مع ما في ذلك من حسن الإدماج المناسب لحكمة لقمان .

- وفي قولِه تعالى: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي) أشار بصيغة المفاعلة إلى مخالفتهما، وإن بالغا في الحمل على ذلك، وأشار بأداة الاستعلاء إلى أنه لا مطمع لمن أطاعهما في ذلك - ولو باللفظ فقط- أن يكون في عداد المحسنين، وإن كان الوالدان في غاية العلو والتمكن من الأسباب الفاتنة له، بخلاف سورة (العنكبوت)؛ فإنها لمطلق الفتنة، وليست لقوة الكفار، فعبر فيها بلام العِلَّةِ، فقال: (لِنُشْرِكَ بِي) [العنكبوت: ٨] ؛ إشارة إلى مطلق الجهاد الصادق بقويه وضعيفه، ففي المو ضعين نوع رمز إلى أنه إن ضعف عنهما أطاع باللسان، ولم يخرجه ذلك عن الإيمان، كما أخرجه هنا عن الو صف بالإحسان، ولذلك حذر في الآية التي بعد تلك من النفاق؛ لأجل الفتنة [1].

وقد كان لجملة الشرط دورها في أداء المعاني في قوله تعالى (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي).

هذه الطاعة التي أمر بها الإسلام للوالدين وما لهما من منزلة وقدر ليست طاعة عمياء وإنما في إطار الشريعة الإسلامية ، وفيها دعوة حقيقية إلى إعمال العقل والتفكر والتدبر في كل ما يقال وما يفعل ؛ لذا كان لأسلوب الشرط دوره في إبراز المعاني وبيان أثرها في النفوس ؛ فإذا كانا

---

[1] يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٦، ١٦٧).

هما السبب الثاني لوجودك في هذه الدنيا فالواجد والخالق هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد فطاعتهما تقف عند أمرهما لك بمعصية الله – سبحانه وتعالى– وعدم الطاعة لايعني الفراق

وإنما يعني المصاحبة بالمعروف بكل ما يقتضيه اللفظ من تواصل " كما أفاد أسلوب الشرط أيضًا التوازن الموسيقي والتآلف الإيقاعي بين جملتي فعل الشرط والجواب ، ليثير انتباه القارئ ويحرك عواطفه ومشاعره"[1].

– وفي قولِه تعالى: (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) فن عكس الظاهر، أو نفي الشيء بإيجابه؛ فقد أراد بنفي العلم نفيه، أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء، يريد الأصنام.

أي: ما ليس بإلهٍ، فيكون لك عِلْمٌ بإلهيَّته .

ولمّا كان من الممكن أيضاً أن يوجد هذا الأمر توهّم وجوب إستخدام الخشونة مع الوالدين المشركين وعدم إحترامهما، ولذلك أضافت الآية أنّ عدم طاعتهما في مسألة الشرك ليس دليلا على وجوب قطع العلاقة معهما، بل تأمره الآية أن (وصاحبهما في الدنيا معروفاً).

فلاطفهما وأظهر المحبّة لهما في الحياة الدنيويّة والمعاشرة، ولا تستسلم لأفكارهما وإقتراحاتهما من الناحية العقائدية والبرامج الدينيّة، وهذه بالضبط نقطة الإعتدال الأصليّة التي تجمع فيها حقوق الله والوالدين، ولذا يضيف بعد ذلك (واتّبع سبيل من أناب إليّ) لأنّ المصير إليه سبحانه (ثمّ إليّ مرجعكم فأُنبّئكم بما كنتم تعملون).

إنّ سبب النفي والإثبات المتلاحق، والأوامر والنواهي المتتابعة في الآيات أعلاه هو أن يجد المسلمون الخطّ الأصلي ويشخّصوه في مثل هذه المسائل، حيث يبدو في أوّل الأمر أنّ هناك تناقضاً في أداء هذين الواجبين، فإن تفكّروا قليلا فإنّ المسير الصحيح سيكون نصب أعينهم، و سيسيرون فيه دون أدنى إفراط ولا تفريط، وهذه الدقّة واللطافة القرآنية في أمثال هذه الدقائق من صور فصاحة القرآن وبلاغته العميقة.

---

[1] التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف ، د. علي علي صبح ، المكتبة الأزهرية للتراث ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م ، ص٩٦.

- وذِكرُ (فِي الدُّنْيَا)؛ لتهوين أمر الصحبة، والإشارة إلى أنها في أيام قلائل وشيكة الانقضاء، فلا يضر تحمل مشقتها؛ لقلة أيامها، وسرعة انصرامها. وقيل: للإشارة إلى أن الرفق بهما في الأمور الدنيوية دون الدينية [1].

- قولُه: (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ) مَعطوفٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ، و(ثمَّ) للتراخي الرتبي المفيد للاهتمام بما بعدها. وتقديم المجرور؛ للاهتمام بهذا الرجوع، أو هو للتخصيص، أي: لا ينفعكم شيء مما تأملونه من الأصنام. وجملة (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ) وعْدٌ ووَعِيدٌ.

- قولُه: (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) في هذه الضمائر تغليب الخطاب على الغيبة؛ لأن الخطاب أهم؛ لأنه أعرف .

- في قَولِه تعالى: (فَأُنَبِّئُكُمْ) بلوغ الغاية في البلاغة في القرآن الكريم، فلم يقل سبحانه: (فأجازيكم)؛ وذلك أنه قد يُنَبأ الإنسان يوم القيامة بما عمل، ثم يغفر له ، فذَكَرَ اللهُ تعالى (الإنباءَ) لأنه مؤكد، أما المجازاة فإن الله تعالى قد يغفر للمذنب ذنوبه.

وقيل: (الإنباءُ) كناية عن إظهار الجزاء على الأعمال؛ لأن الملازمة بين إظهار الشيء وبين العلم به ظاهرة .

الموضع الرابع:-

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ١٨٠

فرض الله على المؤمنين في هذه الآيات حين يشرف أحدهم على الموت، وتأتيه أسبابه إن كان لديه مال: أن يوصي ببعضه إلى والديه وأقاربه، من كان منهم غير وارث، من غير سرف ولا تقتير، مراعيا فيه الأقرب والأحوج، من غير ضرر بالورثة، هذا الأمر بالوصية أمر ثابت ومؤكد على من اتصف بالتقوى.

---

[1] يُنظر: ((تفسير الآلوسي)) (١١/ ٨٦)

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجبا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه ، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله ، يأخذها أهلوها حتما من غير وصية ولا تحمل منة الموصي ، ولهذا جاء الحديث في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب وهو يقول: " إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث " .

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علية، عن يونس بن عبيد، عن محمد بن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى [على] هذه الآية : (إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين) فقال : نسخت هذه الآية .

وكذا رواه سعيد بن منصور، عن هشيم ، عن يونس ، ورواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح على شرطهما .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (الوصية للوالدين والأقربين) قال : كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين ، فأنزل الله آية الميراث فبين ميراث الوالدين ، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج بن محمد ، أخبرنا ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء ، عن ابن عباس ، في قوله : (الوصية للوالدين والأقربين) نسختها هذه الآية : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) [النساء : ٧] .

ثم قال ابن أبي حاتم : وروي عن ابن عمر وأبي موسى ، وسعيد بن المسيب ، والحسن ، ومجاهد ، وعطاء، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، وعكرمة ، وزيد بن أسلم ، والربيع بن أنس ، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وطاوس ، وإبراهيم النخعي ، وشريح ، والضحاك ، والزهري: أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث .

والعجب من أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي رحمه الله كيف حكىٰ في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الأصفهاني أن هذه الآية غير منسوخة، وإنما هي مفسرة بآية المواريث، ومعناه: كتب عليكم ما أوصىٰ الله به من توريث الوالدين والأقربين. من قوله: (يوصيكم الله في أولادكم) [النساء: ١١] قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء. قال: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يسار، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضا سعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، ولكن علىٰ قول هؤلاء لا يسمىٰ هذا نسخا في اصطلاحنا المتأخر؛ لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن "الأقربين" أعم ممن يرث ومن لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عين له، وبقي الآخر علىٰ ما دلت عليه الآية الأولىٰ.

وهذا إنما يتأتىٰ علىٰ قول بعضهم: أن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندبا حتىٰ نسخت.

فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث.

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) (١٨٠).

أي: فرض عليكم- أيها المؤمنون- إذا أتتكم أسباب الموت ومقدماته، وكان لديكم مال: أن تعهدوا ببعض هذا المال إلى الوالدين اللذين لا يرثان لمانع، وإلى الأقارب الذين لا يرثون، وذلك من غير إسراف ولا تقتير، ولا اقتصار علىٰ الأبعد دون الأقرب، بل يرتبون علىٰ القرب والحاجة، ودون إجحاف بالورثة، فلا تتجاوز الوصية لأولئك بأكثر من ثلث المال، وهذا أمر ثابت ومؤكد علىٰ المتصفين بالتقوىٰ [1].

وقوله: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ) فيه تقديمٌ وتأخير، حيث أُخِّر (الوصية) الذي هو نائِب فاعل (كُتِب)؛ للتشوُّق إليه.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢٣، ١٢٤، ١٣٨)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥)، (٢/ ٣٠٥-٣٠٨).

وهذا بناءً على أنَّ (الوصية) نائب فاعل لـ(كتب)، وأمَّا على كون (الوصية) مرفوعة بالابتداء؛ فليس فيها تقديم ولا تأخير.

- قوله: (لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ) قدَّم الوالدين؛ للدَّلالة على أنَّهما أرجحُ في الابتداء بالوصية لهما[1] .

- قوله: (حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) فيه تأكيد للوجوب بقوله: حَقًّا، وكذا قوله: (عَلَى الْمُتَّقِينَ) ؛ فهو إلهاب وتهييج وتذكير بما أمامه من القدوم على مَن يسأله عن النَّقير والقِطمير[2] .

تعقيب:-

إذا قارنّا بين الآية ومثيلاتها:

إحدى هذه الآيات في سورة لقمان (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ (١٤)) والأخرى في العنكبوت (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا(٨)) وفي الأحقاف (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا(١٥)) ، في لقمان ما قال إحسانا ولا حسنا ولكن قال (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا(١٥)) لم يقلها في الموضعين الآخرين ، المقام في لقمان في المصاحبة والمعاشرة بين الناس (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥)) مصاحبة الأب لابنه والابن لأبويه ومصاحبته للآخرين ، والوصية كيف يعامل أبويه وكيف يعامل الناس (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ(١٩)) آداب ووصايا في أصول المصاحبة ، وهذا لم يذكر في العنكبوت ولا في الأحقاف. ثم قال (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا(١٥)) ولم يقل بمعروف أصلاً مثل آيات الطلاق بمعروف أو بالمعروف.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٨).

[2] يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٣).

الفرق بين إحساناً وحسناً:

لاحظ في آية لقمان اشترط على أن أبواه يجاهدانه على الشرك (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي(١٥)) لكن في الأحقاف الوالدان مؤمنان (وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ(١٧)). وفي لقمان قال (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ (١٤)) ولم يذكر الوضع .

أما في الأحقاف ذكر الحالتين (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا(١٥)) ، والجزاء على قدر المشقة لذكر آلام الحمل وآلام الوضع، إضافة إلى أنه قال (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ(١٥))، (وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ(١٧)) فهما مؤمنان. فهو ذكر هنا أنهما مؤمنان وذكر آلام الحمل والوضع ، أما الأخرى كانا يجاهدانه على الشرك.

*الإحسان أحسن من الحسن فالإحسان أن يتعدى خيرك إلى الآخرين، أما الحسن فهو حسن في نفسه. هناك فرق بين أن تعامل شخصاً معاملة حسنة وأن تحسن إليه، يعني الكلام الطيب الكلام الحسن تفضل استرح هذا حسن، أما الإحسان أن تفعل له، فالإحسان أمكن وأقوى من الحسن فهو معاملة حسنة وزيادة.

في العنكبوت أقل، هما كافران (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي(٨)) قال حسناً ولكن هنا أخف مما في لقمان(وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي(١٥)) ففيه حمل و شدة واشتراط، مثلاً: إذا قلت لك زوّجتك ابنتي لتعينني هذا تعليل فقط لغرض أن تعينني، أما إذا قلت على أن تعينني هذا أقوى هذا اشتراط مثل قوله تعالى (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ(٢٧)القصص).

فالمجاهدة في العنكبوت أقل منها في لقمان فصار حسناً وليس فيها مصاحبة بالمعروف ولكن فيها حسن، ولم يذكر أصلاً آلام الحمل أو الوضع كما في الأحقاف.

*قد يسأل سائل: ماذا قال ربنا تحديداً في وصيته لابن آدم بوالديه، إحساناً أم حسناً؟

كلها في سياقها، فالكافر الذي يجاهدك صاحبه في الدنيا معروفاً، ومن أقل منه تحسن إليه وإن كان كافراً (حسناً) والمؤمن (إحساناً) هي درجات، والمعروف يجمع كل هذا فليس هناك تناقض.

تارة يقول تعالى (وقضى) وتارة يقول (ووصّينا) ما الفرق ؟

هو قضى ووصّى معاً، ولاحظ أنه قال وصّينا بالتشديد وليس أوصينا للتشديد على الوصية.

*من باب أولى مادام قضى فقد وصّى فلمَ لم يكتفى بالقضاء (وقضى) دون (ووصّينا) بما أنها أقوى؟

الوصية لها دلالة والقضاء له دلالة، فأنت توصي ابنك بكذا وكذا (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ (١٣٢)البقرة) أما القضاء فهذا أمر الله[1].

وقال: (ووصينا) ، ولم يقل: وأوصينا.

والله تعالى يقول (وصّى) بالتشديد إذا كان أمر الوصية شديدا ومهماً، لذلك يستعمل وصى في أمور الدين، وفي الأمور المعنوية: ("وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٣٢" البقرة) ("وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ١٣١" النساء).

أما (أوصى) فيستعملها الله تعالى في الأمور المادية: "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ" النساء.

لم ترد في القرآن أوصى في أمور الدين إلا في مكان واحد اقترنت بالأمور المادية وهو قول السيد المسيح : "وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ٣١" مريم.

في غير هذه الآية لم ترد أوصى في أمور الدين، أما في هذا الموضع الوحيد فقد اقترنت الصلاة بالأمور المادية وقد قالها السيد المسيح في المهد وهو غير مكلف أصلا.

قال وصّى وأسند الوصية إلى ضمير التعظيم (ووصينا) والله تعالى ينسب الأمور إلى نفسه في الأمور المهمة وأمور الخير.

---

[1] وقفات بلاغية ، د/ فاضل السامرائي.

الفرق بين قوله تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴿٨﴾ العنكبوت) هذه كلمة (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴿١٥﴾ الأحقاف) هذه اثنتان ثم (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ﴿١٤﴾ لقمان) بدون لا حسن ولا إحسان؟

لاحظ قبل كل شيء الله ما قال وصينا المؤمنين بل وصينا الإنسان عموماً.

يريد الله – عز وجل – أن يقول أن هذا علاقة الأبناء بالآباء وعلاقة الآباء بالأبناء هي من خصائص هذا الإنسان لا تجد هذه العلاقة بين كل الأحياء الأخرى، الحيوانات نعم هناك أمٌ تعرف أطفالها ولكن الأب لا يهتم من هو ابنه والابن لا يهتم من هو أبوه بل أن الابن لا يهتم من هي أمه وحينئذٍ الأم فقط في المخلوقات الحية هي التي تهتم بأطفالها إلى حين.

من أجل هذا من خصائص الإنسان إحترام الأبوين وتقديرهما وتقديسهما وحسن التعامل معهما هذا من خصائص الإنسان لأن الله تعالى وصاه بذلك، رب العالمين هو الذي غرس في هذا الإنسان من جملة عناصر أنسنته عندما خرج من المملكة الحيوانية فوهبه الله سبحانه وتعالى العلم (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴿٣١﴾ البقرة) (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴿١٢﴾ التحريم) وحينئذٍ تأنسن الحيوان وحينئذٍ من عناصر أنسنة هذا المخلوق هو أن يكون باراً بوالديه (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٤﴾ المؤمنون). (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا) أي العطاء أن تطعمه وأن تسقيه وأن تقدم له حاجاته إليه ما يحتاجه من مأكلٍ ومطعمٍ وملبس هذا الإحسان.

وفي الآية (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا) هذا لا يكون بالعطاء وإنما بحسن التعامل، كيف تحترمه؟ أنت قد تعطي أباك لكنك تشتمه ولا تحترمه أو تتكلم معه بدون احترام هذا أنت أعطيته أنت بريّت به وهذا الفرق بين الحسن والبر.

البِرّ أن تعطيها ما تحتاجه وأن تعطي أباك ما يحتاجه، الإحسان أن تعطيه بشكلٍ جيد هذا الفرق بين البر والإحسان.

ثانيًا:- حب الزوجة

الموضع الأول:-

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم: ٢١

- سكن النفوس والمودة في الصِغر و الرحمة في الكِبر التي بين الزوجين موجبة للتفكر وتدعو للتأمل والتدبر، وهذه آية عظيمة من آيات الله تعالىٰ في البشرية .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا).

أي: ومن العلامات الدالة علىٰ صفات الله تعالىٰ: أنه خلق لكم من أنفسكم أزواجا؛ لتحصل المناسبة والألفة والاطمئنان بينكم [1] .

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً).

أي: وجعل الله بينكم -أيها الأزواج- محبة عظيمة، ورحمة يعطف بها بعضكم علىٰ بعض [2] .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

أي: إن في خلق الله لكم أزواجا من أنفسكم لتسكنوا إليها، وما جعل بينكم من المودة والرحمة- لعلامات ودلالات علىٰ قدرة الله، وحكمته ورحمته، وغيرها، لقوم يعملون فكرهم في ذلك [3] .

---

[1] يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، و ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٤)، و((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، و((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٦، ٦٧)،و ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، و ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧١)، و ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، و((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٤)، و ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، و ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٩، ١١٠).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، و((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٥)، و((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦)، و ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٨، ٦٩)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، و((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١١).

وقولُه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) أدمج في الاعتبار بهذه الآية امتنان بنعمة في هذه الآية أشار إليها قوله: (لكم)، أي: لأجل نفعكم.

إذن الله – تبارك، وتعالى – يمتن على العباد بأن خلق لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم، وكان أصل هذا الجنس قد خُلِّق من أبينا آدم – عليه الصلاة، والسلام – خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لماذا؟ جاء التعليل: لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا والتعبير هنا بمثل هذا الذي علل به: لِتَسْكُنُوا فالسكن، والسكون يدل على معانٍ من الهدوء، الطمأنينة، الراحة؛ لأن الذي يقابل الاضطراب: السكون، الذي يقابل الحركة: السكون؛ الرجل حينما ينتشر، ويخرج في حاجاته، ومصالحه هنا، وهناك، ويلقى ما يلقى من التعب، والعناء، حينما يطوف طلباً للرزق فإنه حينما يرجع إلى داره، إلى بيته، إلى موضع سكنه – هذه الزوجة – يجد الراحة، والطمأنينة، والسكون، فيجد المرأة في استقباله، وهي تحت نظره ترعى مصالحه، وتربي ولده، وتقوم على شؤون المنزل، فيتحول من تلك الحركة إلى سكون في الدار، يجد فيه بغيته، وأنسه، وراحته، وطمأنينته، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن هذا الركون إليها، وهذا الارتياح، وهذا الاطمئنان يحصل به هدأة النفس، يحصل به سكون النفس، فتبقى النفس، وادعة هادئة ساكنة لا اضطراب فيها، فتذهب عنه تلك الأمور المزعجة، والمقلقة لما يجد في داره عند امرأته من لمسة حانية، ومن مراعاة لمصالحه، وحاجاته كلها، فتطمئن النفس، وعلى قدر ما تقوم عليه المرأة من هذه المعاني، وبقدر ما يتحقق فيها من هذه الأوصاف يحصل سكون الرجل، ومن ثَمّ فإن ملائمة الطبع بين الرجال، والنساء مؤذنة بمزيد من الطمأنينة، والسكون، والراحة، ولذلك فإن اللائق بمن يقبل على الزواج أن يبحث عن امرأة تشاكله في اهتماماته، وعاداته، وفي مستواه المعيشي، وما إلى ذلك من الأمور التي يحصل بها المزيد من المشاكلة، والمقاربة، فهو ليس بحاجة إلى أن يكتشف في كل يوم عادة جديدة، وخلقاً غريباً لا يعرفه، ولا يألفه، هؤلاء يستحسنون أمراً، وهو يستقبحه، أو العكس، وهكذا حينما يوجد التباين في الاهتمامات، يوجد التباين في التربية، يوجد التباين في الاستقامة، يوجد التباين في مستوى المعيشة؛ إذا كان الرجل فقيراً، وقد تزوج بامرأة قد اعتادت على سعة العيش، ورفاهيته، ولا يستطيع أن يحقق أحلامها، وآمالها، ومطالبها، فإن ذلك يؤذن بشيء من الاضطراب،

والانزعاج، إلا أن تكون هذه المرأة ممن قد زهدت في عرض الدنيا، ومظاهرها، وتريد ما عند الله، والدار الآخرة.

وهنا قوله - تبارك، وتعالى - : لِتَسْكُنُوا قد عُدي بـ(إلى) لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ما قال: لتسكنوا عندها، أو لتسكنوا معها، فالتعدية بـ(إلى) هنا فهم منها بعض أهل العلم أن ذلك لكونه من السكون القلبي لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ما قال: تسكنوا عندها، فيقولون: هذا للسكنى الجسمانية، سكنى الأجسام، أنا ساكن في الحي الفلاني، أسكن عند فلان، فهذا في سكنى الأجسام، لكن ما تقول: أنا أسكن إلى الحي الفلاني، وإنما إذا عدي بـ(إلى) فهذا يدل على الميل، ولهذا قال بعض المفسرين بأن قوله: لِتَسْكُنُوا قد ضُمن في هذا الفعل فعلا آخر يصلح أن يعدى بـ(إلى) وهو لتميلوا، لتسكنوا مضمن معنى فعل آخر: لتميلوا إليها إذا كانت من جنسكم، فيحصل هذا الميل الطبيعي، الميل الفطري.

وبعض من لا خلاق لهم لربما تسمع هنا، وهناك أن امرأة ممن لا يعرفون الله، ولا الدار الآخرة قد تزوجت بحيوان، هذا لا يمكن أن يحصل معه هذا السكون بحال من الأحوال، ثم إن السكون هنا يدل على معنى الأنس، والفرح، فرح النفس، وزوال الاضطراب، والوحشة، وذلك أن السكون يدل كما سبق على ما يقابل الاضطراب، والحركة، فتحصل هدأة النفس، وطمأنينتها، ولذلك ينبغي أن تراعي المرأة هذا المعنى، أن يكون البيت محلا للسكن، والطمأنينة، إذا جاء الرجل لا يوجد إزعاج، لا يوجد منغصات، لا تستقبله بالطلبات، لا تستقبله بالتشكي، لا تستقبله بمنغصات تنغص عليه، وتكدر صفو حياته، ومن الخطأ حينما يرجع الرجل، وقد أُجهد، وكلّ أن يستقبل بلون من التذمر، أو المطالبات، أو المشاكسات، أو نحو ذلك، فإن هذا مؤذن بالنفرة، الرجل يطلب موضعاً لراحته، ولم يجد سوى هذه الدار، وهذه الزوجة، فإن لم يجد راحته، وصار يبتعد عن داره؛ ليبحث عن الراحة هنا، وهناك، وصار بيته محلا للنكد، هذا قلب للميزان، وهذا من أشق ما يكون على المرء، حينما تتحول حياته في بيته إلى لون من المعاناة حتى يصير أنسه، وراحته خارج الدار.

(لِتَسْكُنُوا) يقصد به السكن الحسي في سكن يضم الزوجين، والسكن المعنوي من إباحة الخلوة بمكان يحفظ الحياء والمودة بينهما؛ قال تعالى: (هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ)،[٦] ففي السكن المادي دوام

الاستقرار والأمن والرعاية، وفي السكن المعنوي السعادة والرضا والقبول، ومعرفة الحقوق والواجبات.

ثم ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] هذه القضية تحتاج إلى تفكر، إلى إعمال ذهن، والحافظ ابن القيم - رحمه الله - يذكر أن الله تعالى نوّع الآيات في هذه السورة؛ فجعل خلق السماوات، والأرض، واختلاف لغات الأمم، وألوانهم آيات للعالمين، العالمين كلهم، لاشتراكهم في العلم بذلك؛ خلق السموات، والأرض آية واضحة على قدرته، ووحدانيته، وعلمه - تبارك، وتعالى - فهو أمر ظاهر، واضح الدلالة، يقول ابن القيم: "وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال، وإلقاء المودة، والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلى امرأته، وما يكون بينهما من المودة، والتعاطف، والتراحم أمر باطن، مشهود بعين الفكرة، والبصيرة، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة، والرحمة، والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته، وإلاهيته، وحكمته، ورحمته"[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، مع التنبيه على أن ما ذكر ليس بآية فذة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ومن آياته﴾، بل هي مشتملة على آيات شتى . وإنما جعل في ذلك آيات كثيرة باعتبار اشتمال ذلك الخلق على دقائق كثيرة، متولد بعضها عن بعض، يظهرها التأمل والتدبر، بحيث يتجمع منها آيات كثيرة.

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه؛ للإشعار ببعد منزلته.

- وجُعِلَت الآياتُ ﴿لقومٍ يَتفكَّرون﴾؛ لأن التفكر والنظر في تلك الدلائل هو الذي يجلي كنهها، ويزيد الناظر بصارة بمنافع أخرى في ضمنها؛ فالقصد في خلق الأزواج السكون إليها، وإلقاء المحبة بين الزوجين، ليس لمجرد قضاء الشهوة التي يشترك فيها البهائم، بل لتكثير النسل، وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤديهم الفكر إلى المعرفة والعبادة التي ما خلقت السموات والأرض إلا لها؛ فناسب ذلك التفكر[2].

---

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١١٢)، والجواب الكافي (ص: ١٤١)، ومفتاح دار السعادة (١/ ١٨٦).

[2] يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، و((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤)، و ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٢)، و((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧١).

الموضع الثاني:-

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)﴾ النساء: ٢٠ - ٢١

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ)

أي: إذا أراد أحدُكم- أيُّها الأزواج- أنْ يُطلِّقَ زوجته، ويتزوَّج بأخرىٰ[1] .

(وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا)

أي: والحال أنَّكم قد أمهرتموهنَّ مهرًا كبيرًا، فإنَّه لا يحلُّ أخذُ شيءٍ منه عَنوةً؛ لأنَّه حقُّها، والنهي عن ذلك بالأَوْلىٰ لو كان المهر قليلًا .

(أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

أي: أتأخذون ما آتيتموهنَّ من المهور كَذِبًا، وظلمًا بغير حقٍّ، وإثمًا ظاهرًا، قد أبان أمْرَ آخِذِه أنَّه بأخذه إيَّاه ظالمٌ لِمَن أخَذَه منه ؟

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا) (٢١)

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ)

أي: علىٰ أيِّ وجهٍ تأخذون من نسائكم ما أعطيتُموهنَّ من مهور؟ والحال أنَّه قد حصلت بينكم عَلاقةُ استمتاعٍ وجماعٍ[2] .

(وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا)

أي: وقد أخذ نساؤكم منكم- أيُّها الأزواج- عهدًا شديدًا مؤكَّدًا، وذلك بعقد النكاح، والقيام بحقوقهنَّ، ومن ذلك: إمساكُهنَّ بمعروف، أو تسريحهنَّ بإحسان.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٩)، و ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، و ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٨).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٠-٥٤١)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، و ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠).

وقوله: (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا): فيه مبالغة في تفخيم الأمر وتأكيده؛ حيث عظم الأمر حتى ينتهى عنه [1] .

- قوله: (أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا): استئناف مسوق لتقرير النهي والتنفير عن المنهي ، والاستفهام إنكار وتوبيخ، أي: تأخذونه باهتين وآثمين.

- قوله: (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ): استفهام إنكار لأخذه إثر الإنكار الوارد في قوله تعالى: أتأخذونه بهتانا، وتنفير عنه غب تنفير، على سبيل التعجب، أي: بأي وجه تستحلون المهر وقد أفضى بعضكم إلى بعض ؟!.

وفيه مبالغةٌ؛ حيثُ وجَّه الإنكارَ إلى كيفيَّة الأَخْذِ؛ إيذانًا بأنَّه ممَّا لا سبيلَ له إلى التحقُّق والوقوعِ أصلًا؛ لأنَّ ما يَدخُلُ تحتَ الوجود لا بدَّ أن يكونَ على حالٍ من الأحوال، فإذا لم يكُنْ لشيءٍ حالٌ أصلًا، لم يكُنْ له حظٌّ من الوجودِ قطعًا[2] .

- قوله: (وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ): في قوله: أفضى كناية حسنة ؛ لأن الإفضاء إلى الشيء عبارة عن المباشرة له، وعني بالإفضاء في هذا الموضع الجماع [3] .

تعقيب:-

* ضرب الله تعالى مثلاً للمهر بالقنطار ولم يسمِّه على الأصل مهراً أو نِحلة فالمهر يطلق على القليل والكثير فلو حدّده بالمهر ثم أتبعه (فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا) لربما تبادر إلى أذهاننا أنه لو كان كثيراً يحق لنا أن نأخذ نصيباً ولكن عندما مثّل للمهر بالقنطار وهو كثير جداً ثم نهانا عن الأخذ منه علمنا أن المهر مهما قل أو كثر لا يحق لنا أن نقتطع منه لأنفسنا.

* قالت الآية (أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً) ولم تقل أتأخذونه ظلماً: الله سبحانه ينهى الرجال أن يأخذوا شيئاً من المهور المقدمة سابقاً منهم إلى زوجاتهم ظلماً وعدواناً بغير حق بدون طيب خاطر من الزوجة، البهتان هو أشد الكذب، وهو الكذب المُفترى بهت فلان فلاناً يعني ادّعى عليه شيئاً ونسب إليه ما ليس فيه وافترى عليه.

---

[1] ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٦).

[2] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩).

[3] ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٩) ، و ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٨٩).

لم يقل الله -عز وجل- أتأخذونه ظلماً يعني بغير حق؛ لأن هذا الظلم الذي أخذوه إنما هو مبني على كذبٍ ادّعوه لأنفسهم كأن يقول الواحد: هذا حقي، هذا في الأصل مالي، هي التي تركتني، وهي التي أساءت معاملتي، هي تستحق أن آخذ مالها، تستحق العقاب، يبرر لنفسه كذباً وبهتاناً ليأخذ مالها، والقرآن يراعي الحالة الشعورية للذي يريد أن يأخذ ما أعطاه، والقرآن يهتم بالجانب الدلالي اهتماماً كبيراً، ما الذي دفعهم إلى الظلم؟ كذبهم وادّعاؤهم أنهم أصحاب حق.

* البهتان واضح والإثم واضح فما دلالة مبيناً؟ مبيناً يعني واضحاً فجاءت مبيناً صفة لتدل على تقبيح هذا الإثم، فتقول لمن لا يدركه بأنه لا يرى الواضح.

ثالثًا : حب الولد:-

و من صور الحب الأبوي الذي ورد في سورة يوسف ما يبدو في أول السورة من حرص الأب يعقوب على ولده يوسف ، وقد أحسّ بغيرة إخوانه منه ، وكيدهم له .

يظهر هذا في شفقته على ولده من غيرة إخوانه حين فهم تأويل الرؤيا الصادقة التي رآها يوسف.

الموضع الأول:-

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٥)﴾

يوسف: ٤ – ٥

استهل القرآن الكريم قص الحوار بـــ " إذا" الظرفية لتحديد الزمان الذي بدأ الابن بقص رؤياه على أبيه فيه ، وتأتي صيغة التعبير بالفعل الماضي " قال" للتعبير عن حقيقة قائمة.

ويظهر الحوار في الآية حب الأب الحريص على سلامة ابنه ، ويأتي الخطاب رقيقًا (يا بني)، وبعده النهي عن قصّ الرؤيا للأخوة ، ثم تعليل النهي بسبب الخوف من كيدهم .

ولم يكن هذا الحرص انفعالًا عابرًا، إنما هو عن معرفة وتقدير للأمر ، كان يحس بحسد أبنائه لأخيهم يوسف بسبب حبه له.

والنداء في الآية مع كون المنادى حاضر مقصود به الاهتمام بالخبر الذي سيلقى إلى المخاطب فينزل المخاطب منزلة الغائب المطلوب حضوره، وهو كناية عن الاهتمام.

ويكرر النداء على لسان يعقوب -عليه السلام- في قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾.

ونداء يعقوب لابنه (يوسف) يختلف عن نداء ابنه وذلك يعود إلى أن الأب أدرك معنى حلمه فخشي عليه من كيد إخوته ، وهذا يعني امتلأ صوت يوسف الذي يحمل لفظة (يا أبت) دهشة وسعادة ، بينما يمتلئ صوت الأب يعقوب فلاحة مشوبة بخوف وقلق وحرص فيظهر خافتًا مرتجفًا.

والتصغير في (بنيّ) كناية عن تحبب وشفقة نزل الكبير منزلة الصغير؛ لأن شأن الصغير أن يُحَب ويُشّفق عليه ، وفي ذلك كناية عن إمحاض النصح له.

ولايخفى دور الكناية وذلك لما لها من قيمة بلاغية كبيرة ، فهي أبلغ من التصريح والاستعارة أيضًا لإفادتها المبالغة وتأكيد المعنى وتقريره.

ونلمح في هذه الآية حبًا آخر، حب الأب يعقوب لأبنائه(أخوة يوسف)، فطلب يعقوب من يو سف ألا يحدث أخوانه عن رؤياه ، وإن كان فيه الحرص على سلامة يو سف إلا أن فيه دلالات على حكمة يعقوب في فهم واقع أبنائه، ومحاولة معالجته لهذا الواقع بقدر الإمكان ، والتحرز من مضاعفة عوامل الحسد والغيرة في نفوس الأخوة .

كما نجد في الخطاب حبًا أو رأفة بالأبناء في عزو يعقوب الدافع الشرير الذي قد ينشأ في نفس الأخوة إلى ما يثيره الشيطان ، ويلقيه من وساوس في نفوسهم .

قوله تعالى ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾ .

" وهذه ا ستعارة لأن الكواكب والشمس والقمر مما لايعقل ، فكان الوجه أن يقال ساجدة . ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل ، جاز أن توصف بصفة من يعقل ؛ لأن السجود من فعل العقلاء . فهي استعارة مكنية بتشبيه المذكورات يقوم عقلاء ساجدين والضمير والسجود قرينة"[1].

---

[1] تلخيص البيان في مجازات القرآن ، حققه عبد الغني حسن ، دار إحياء الكتب العلمية ، القاهرة ط١ ، ١٩٩٥م ، ص٦٢.

وتكمن بلاغة الا ستعارة في تجسيد المعنى وتقويته وتقريبه للأذهان، كما أظهرت الا ستعارةُ المعاني المعنوية في صـــورة حســـية، "فقد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابي هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عيانًا"[1].

يقول ابن عاشور " واستعمل ضمير الجمع المذكر للكواكب والشمس والقمر؛ لأن كون ذلك للعقلاء غالب لا مطرد، وقال جماعة من المفسرين إنه لما كانت الحالة المرئية من الكواكب والشـمس والقمر حالة العقلاء وهي السجود نزلها منزلة العقلاء فأطلق عليهم ضمير (هم) وصيغة الجمع "[2].

وتقديم المجرور على عامله في قوله (ساجدين) للاهتمام.

ومن مواطن القصر في السورة الكريمة ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾ قدم الجار والمجرور على المسند (ساجدين) لإفادة الحصر إيذانا بأهمية السجود السائد في مجتمعهم فهو سجود تعظيم لا سجود عبادة.

ولم يذكر يعقوب – عليه الـ سلام – با سمه بل كنى عنه بالأب للدلالة على ما بينهما من صفة الرحمة والشفقة.

ومن معاني التكرار إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد الثاني تكريرًا كما في قوله تعالى ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾ والتكرار في القرآن الكريم ضرب مهم من إعجازه النظمي ، ووجه بليغ من وجوه البلاغة لذا وقع هذا الأسلوب في هذا الكتاب العزيز لغايات بلاغية دقيقة تفهم من السياق ، وتعرف من القرائن والأحوال.

وقد أبدى يعقوب خوفه على ولده حين طلب أخوته اصطحابه في رحلة لهم .

إنه الحب الأبوي الذي قد يسابق الأحداث ، ويجعل المحب مستشفًا لما قد يحدث لحبيبه، أو أنه أراد أن يخبرهم بأنه لمجرد غيابه عنه سيشعر بالحزن ، لا تشكيكًا بحبهم له.

---

[1] المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق:د. أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ج٢، ص٣٥، الناشر: مكتبة نهضة مصر – الفجالة، بدون تاريخ.

[2] تفسير ابن عاشور، ١٣/ ٢٠٨.

والمحب يشفق عادة ويقلق على سلامة من يحب، ويتولد عن الحب والقلق خوف على من يحب من كل أذى.

هذا على ظاهر الخطاب ، ولكن السياق يؤكد مخافة يعقوب من كيد أبنائه ، ولكنه بحكم أبوته ونبوته يجاهد نفسه في خطابهم الخطاب الرقيق لعلهم يرتدعون ، فيقدم لهم عذره متمثلا بخوفه من غفلتهم عن يوسف و يخيل للأب بسبب حبه لابنه، وشدة خوفه وقلقه عليه أن الذئب قد يأكله.

فهل هذا من اسشراف النبوة، أو هو الحاسة السادسة التي قد تستشف المستقبل، أو هو مما تسارع على لسان النبي يعقوب بنطقه بدافع حبه لابنه ، حتي قيل إن خوفه على يوسف هو الذي أوحى لأبنائه اختلاق القصة التي يدعون فيها اختفاء أخيهم.

وقد أشار القشيري إلى أن ما جرى على لسان يعقوب - عليه السلام- من حديث الذئب صار كالتلقين لهم ، ولو لم يسمعوه ما اهتدوا إلى الذئب [1]:

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ يوسف: ١١

وقد استخدم الأخوة كل وسائل الإقناع ، بأنهم راغبون في أن يصطحبوه للعب والمتعة، ويتعهدون لأبيهم أن يحافظوا عليه، لكن حب يعقوب لابنه وحرصه عليه جعله يقلق ، لسماحه لهم باصطحابه، فيستشعر بالحزن.

وتقديم الجار والمجرور للاهتمام بمنزلة يوسف - عليه السلام- .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ يوسف: ١٠ - ١١

هذا الحوار والتخوف صورة من صور حب الأبوة الحانية التي من آثارها الشفقة والقلق والخوف حتى قيل في المثل (إن الشفيق بسوء ظن مولع).

وتغيرت حياة يعقوب الأب حين بلّغه أبناؤه القصة الملفقة بشان أكل الذئب لأخيهم، ولكنه نبي و صابر، فهو لم يصدق ادعاءهم، ومع ذلك لم يظهر غضبه عليهم، وإنما اكتفى بخطاب نفسه وتسليتها

---

[1] لطائف الإشارات ٣/ ١٧٢.

بالصبر الجميل، وبأن الله وحده هو المستعان في مثل محنته ، وربما لم يقس النبي يعقوب على أبنائه ، لأنهم أبناؤه أيضا:

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾ يوسف: ١٤ – ١٦

لقد أحس النبي يعقوب أن أبناءه يكذبون، ولم يصدق ادعاءهم أكل الذئب يوسف، ولهذا قال لهم (بل سولت لكم أنفسكم).

واكتفى بهذه لعبارة ولم يزد عليها تأنيبا أو عقابا، أو دعاء بالسوء؛ فهو نبي أولا ، وهو أب ، يحب أبناءه حتى مع سوء تصرفهم ، وإيذائهم لأخيهم .

لقد أفاد الفعل سولت بنسبته إلى (أنفسكم) إحساس الأب بكذب ادعاء أبنائه ؛ والتسويل : تزيين النفس لما تحرص عليه ، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن .[1]

وسولت أنفس الأخوة أمرا في يوسف، وحسنته ففعلوه.

ويقال إن يعقوب قال بإحساس الأبوة والنبوة والحكمة: لو أكله الذئب لخرق قميصه .[2]

إن فقد النبي يعقوب لابنه يو سف أثار فيه داعيا من دواعي الحزن الـشديد، مما أدى إلى فقدانه بـصره والحزن أحد ملامح الحب إن طرأ طارئ يستدعيه وهو(حالة تحدث للمحب ، وهي ورود المكروه عليه ، وهو خلاف المسرة ، ولما كان الحب لا يخلو من ورود ما لا يسر على قلب المحب ، فكأن الحزن من لوازمه)[3].

ويذهب الأخوة إلى مصر ـ ليكتالوا ، فيعرفهم يوسف ، ويمنع عنهم الكيل إلا أن يأتوه بأخيهم الآخر (من أبيهم)، وكانت تلك خطة منه لاستدارج أخيه، فما كان من الأب إلا أن يبعث بابنه معهم ، ولكنه الأب الشفيق ، وخوفه على ابنه يذكره بفعلة أبنائه بأخيهم يوسف ، ومع ذلك ينبعث الخوف على أولاده أيضا ، فيطلب منهم أن لا يدخلوا من باب واحدة ، ويدخلوا متفرقين من أبواب متعددة؛ حتى لا

---

[1] يُنظر المفردات ٢٥٥.

[2] تفسير الطبري ١٥/ ٥٨٣.

[3] صبابة المعاني ١٥٠.

يثيروا انتباه أحد أو شكه، أو ربما خوفا عليهم من الحسد ، فدخولهم متفرقين يبعد عنهم الحسد والظنة في الوقت نفسه، وربما كان هاجس الأبوة وراء وصيته ، ليس خوفا عليهم من الحسد إنما استشعارا منه، وأملا في احتمال رؤيتهم ليوسف.[1]

ثم استكمل الحزن وتضاعفت المصيبة حين حجز يوسف أخاه عنده وأخبر الأخوة بأنه بسبب سرقته لصواع الملك؛ حين عاد الأخوة إلى أبيهم ، لم يصدقهم أيضا ، وإنما عاوده تذكر يوسف مرة أخرى ، فيطلب من أبنائه أن يعودوا ، ويبحثوا خفية عن أخيهم يوسف.

والقضية هي قضية أخو يوسف الذي حجز في مصر، وليست قضية يوسف الذي ادعى الأخوة أن الذئب قد أكله.

إننا هنا أمام الإحساس الذي لا يخطأ، إحساس الأب بأن ابنه ما يزال حيا، وأن لقاءه مرتبط باخيه الصغير وقد يكون هذا أثرًا من آثار النبوة في استشرافه ماحدث لابنه، وليس علما تاما بمصيره؛ لأنه لو كان كذلك لما حزن الحزن الشديد ولما بكى البكاء الذي أفقده بصره:

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾يوسف: ٨٧

ونلمح هنا الإحساس بالأبوة الصادقة مع كون الأبناء مسيئين بحق أبيهم وأخويهم ، فيعقوب عليه السلام لا يخاطبهم خطابا غليظا ولا يعنفهم ، ولا يأمرهم بشدة للذهاب بحثا عن يوسف وأخيه، إنما يخاطبهم برفق (يا بني) ويحفز في نفوسهم الأمل (ولا تيأسوا من روح الله).

ولكنه حين يختلي بنفسه، يعود إلى حزنه على فقد يوسف، ولكنه يكظم حزنه ويخفيه.

ونلمح الاستعارة هنا؛ حيث استعير الروح وهو تسنيم الريح التي يلذ شميمها ويطيب نسيمها ، للفرج الذي يأتي بعد الكربة ، واليسر الذي بعد الشدة

---

[1] يُنظر البيان القرآني ١٢٢، سورة يوسف ١٦٦.

لقد أحس النبي يعقوب أن مجريات الأحداث لا بد أن تكون مرتبطة بيوسف؛ لذلك طلب منهم أن يتحسسوا خبره، وفي لفظ التحسس إيحاء قوي بتوكيد البحث عن جلية الأمر بخفية، دون أن يثيروا الشكوك في النفوس.

وتتجلى الأبوة رائعة، محركة للأحاسيس، مثيرة للعاطفة الجيّاشة في مشهد المفاجأة التي يفاجأ بها النبي يعقوب الذي فقد بصره لكثرة بكائه على ابنه، تحتشد الصورة بالانفعالات الجيّاشة التي تزخر بذكريات الأب عن ابنه يوسف، تلك الذكريات التي أبرزها التعبير القرآني المعجز، في أن الأب استشعر ريح يوسف، أو لم يبق في ذاكرة الأب إلا ريح ابنه؟ أم لأنه أعمى لا يمكن أن يرى القميص، ولكنه يستطيع أن يشم رائحة ابنه من قميصه الذي ارتداه من قبل، إنها صورة حافلة بالأحاسيس اعتمدت العاطفة وروح المفاجأة في استرجاع النبي يعقوب لبصره الذي فقده حزنًا وكمدًا على ابنه.

واختصرت المفاجأة الطريق الطويل من مصر إلى مكان النبي يعقوب، واختزلت كل التفصيلات بلفظ البشير الذي ألقى قميص يوسف على أبيه، فرد إليه بصره.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ(٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)﴾ يوسف: ٩١ - ٩٤

في هذا الحوار ما يزال الأبناء بقسوة قلوبهم وغيرتهم من أخيهم يوسف، وعدوا تذكر أبيهم ليوسف ضلالا وتخريفا، ولم يقولوا هذا همسا أو هاجسا في نفوسهم، وإنما ذكروه صراحة دون مواربة أو رمز.. ويبقى جواب يعقوب في هذا الموقف جواب الأب الراغب في عودة أبنائه جميعا إليه، وجواب النبي الذي يذكر بالله في كل موقف، وأن ما يقوله هو علم ووحي من الله.

الموضع الثاني:-

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ

يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ النساء: ١١

- قوله: (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ...) الآية: تفصيلٌ بعدَ الإجمالِ الذي في قوله: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ، وتخصيص الذكر بالتنصيص على حظه والابتداء به؛ لإظهار مزيته على الأنثى؛ لأن القصد إلى بيان فضله، والتنبيه على أن التضعيف كاف للتفضيل، فلا يحرمن بالكلية وقد اشتركا في الجهة، والمعنى للذكر منهم، فحذف للعلم به [1] .

- وإيثار اسمَيْ (الذَّكر) و(الأُنثى) على ما ذُكر أوَّلًا من (الرِّجال) و(النِّساء)؛ للتَّنصيصِ على استواء الكبار والصغار من الفريقين في الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر في ذلك أصلا، كما هو زعم أهل الجاهلية؛ حيث كانوا لا يورثون الأطفال كالنساء [2] .

- وقال: (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) دون أن يقولَ: (للأنثى نِصفُ الذَّكَر)؛ لأنَّ الحظَّ والنَّصيب فضلٌ وزيادة، والنِّصف نقص؛ فلهذا قال: (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)، ولم يقُلْ: للأنثى نِصفُ ما للذَّكر؛ لِمَا في كلمة (نِصْف) من النقص، بخلاف حظ الأنثيين؛ فإن فيه زيادة، فهو أحسن تعبيرا مما لو قال: للأنثى نصف ما للذكر.

- قوله: (فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ) وقوله: (وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ): مِمَّا تَرَكَ: أي: مما ترك الميت الموروث؛ ففيه إعادة الضمير إلى غير مذكور قبله، وهو الضمير المستكن في الفعل (ترك)، أي: ترك هو؛ لقوة الدلالة على ذلك؛ لأن الآية لما كانت في الميراث، علم أن التارك هو الميت الموروث [3] .

---

[1] ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨٠)، و ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣).

[2] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٩)، و((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨١).

[3] يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨١)، و ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١).

- وقوله: (مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ): فيه تكرار للوَصيَّةِ والإيصاء ، وهو يُفيد التَّأكيدَ.

وتقديم الوصية على الدين مع أنها متأخرة في الحكم؛ لأنه لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاظمهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنة للتفريط، بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه؛ فلذلك قدمت على الدين بعثا على وجوبها، والمسارعة إلى إخراجها مع الدين؛ ولذلك جيء بكلمة (أو) للتسوية بينهما في الوجوب.

وقيل: قدمت الوصية أيضا؛ إذ هي حظ مساكين وضعاف، وأخر الدين إذ هو حظ غريم يطلبه بقوة، وهو صاحب حق له فيه، ثم أكد ذلك ورغب فيه بقوله: (ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ..)، أي: لا تدرونَ مَن أنفعُ لكم من آبائكم وأبنائكم الذين يموتونَ ؟

- قوله: (ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا): جملة اعترا ضيَّة مؤكِّدة لوجوبِ تنفيذ الوصيَّة .

تعقيب:-

الفرق بين استعمال وصّى وأوصى : من الملاحظ في القرآن أنه يستعمل وصّى في أمور الدين والأمور المعنوية وأوصى في الأمور المادية. (وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ (١٣١) النساء) ويستعمل أوصى في المواريث (يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ (١١) النساء) (مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ (١١) النساء) .

لم ترد أوصى في الأمور المعنوية وفي أمور الدين إلا في موطن واحد اقترنت بأمر مادي عبادي وهو قوله تعالى على لسان المسيح (وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا (٣١) مريم) قال أوصاني لأنها اقترنت بأمر مادي وعبادي وهو الزكاة والأمر الآخر أن القائل هو غير مكلّف لذلك خفّف من الوصية لأنه الآن ليس مكلفاً لا بالصلاة ولا بالزكاة فخفف لأنه لا تكاليف عليه.

* الفرق بين الأبوين والوالدين: التي تلد هي الأم والوالد من الولادة التي تقوم بها الأم وهذه إشارة أن الأم أولى بالصحبة وأولى بالبر والاحسان قبل الوالد.

والله – عز وجل – لم يستعمل البر والإحسان والدعاء في جميع القرآن إلا للوالدين وليس الأبوين (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٢٣) الإسراء) (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ (٢٨) نوح) استعمل البر والاحسان للفظ الوالدين وليس للفظ الأبوين. الوالدان للوالد والوالدة والأبوان للأب والأم.

الوالدان هي تثنية الوالد والولادة الحقيقية للأم وليس للأب الأب ليس والداً لأنها هي التي تلد والأبوان تثينة الأب، من الأحق بحسن الصحبة الأب أو الأم؟ الأم، فقدّم الوالدين إشارة إلى الولادة، لكن في المواريث لأن الأب له النصيب الأعلى في الميراث من نصيب الأم استعمل الأبوين (وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ).

في الأموال يستعمل الأبوين وفي الدعاء الوالدين.

* الفرق بين الأبناء والأولاد : الأبناء جمع إبن وهي للمذكور مثل قوله تعالى (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ (٤٩) البقرة) أما الأولاد فعامة للذكور والإناث (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ) (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ (٢٣٣) البقرة).

* ختمت الآية (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا) وفي آية الكلالة آخر السورة ختمت بقوله (وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أيها يدلّ على العِلم أكثر؟ عندما تقول كنت أعلم بهذا أو أعلم هذا؟ كنت أعلم بهذا أدل على العلم أي أعلم قبل أن تقع (إن الله كان علياً حكيماً) أدلّ على العلم من (والله بكل شيء عليم). البعض يقول (كان) للماضي، كان يعلم بالأمر قبل أن يقع هذه أدل على العلم من يعلمه الآن.

في الأولاد الذكور قال تعالى (آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) إذن إن الله كان علياً حكيماً. عندما شرّع هو يعلم هذا الأمر أصلاً. في آية الكلالة ما ذكر حيرتهم في عدم المعرفة، هناك ذكر حالتهم (آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) لما ذكر جهل الإنسان وعدم المعرفة ذكر أن علمه سبحانه وتعالى سابق (إن الله كان علياً حكيماً) ولما لم يذكر هذا الأمر ما اقتضى الأمر، ما فيها حيرة بين الناس قال (والله بكل شيء عليم).

* (كان) في اللغة قد تكون للماضي أو للماضي المستمر وقد تأتي للإستقبال وفي كل صيغة تفيد معنى خاصاً:

• أولاً: الزمان الماضي المنقطع كأن تقول كان نائماً واستيقظ، كان مسافراً ثم آب.

• ثانياً: في الماضي المستمر (كان الإستمرارية) بمعنى كان ولا يزال، أي هذا كونه منذ أن وُجِد (وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً) (إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) لا تعني كان عدواً والآن أصبح صديقاً.

• ثالثاً: و(كان) تفيد الإستقبال (وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا) أي صارت في المستقبل.

• رابعاً: وتأتي بمعنى الحالة كقوله تعالى (كنتم خير أمة أُخرجت للناس) و (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا).

• خامساً: قد تكون بمعنى ينبغي.

* (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ) جعل الله تعالى حظ الانثيين هو المقدار الذي يقدّر به حظ الذكر ولم يجعل حظ الذكر هو المقياس كأن يقول للأنثى نصف حظّ الذكر، أمعِن التأمل في هذا اللطف الإلهي فقد آثر ربنا تعالى هذا التعبير للإيحاء للناس بأن حظّ الأنثى هو الأهم في نظر الشرع وهو مقدّم على حق الرجل لأن المرأة كانت مهضومة الجانب عند أهل الجاهلية أما في الا سلام فقد أصبح حظّ المرأة ونصيبها هو المقياس.

الموضع الثالث:-

﴿ واللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾النحل: ٧٢

أي: والله خلق لكم- أيها الناس- من جنسكم البشري وعلى هيئتكم أزواجا، فتسكنون إليها، ويحصل الائتلاف والمودة بينكم [1] .

كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) [الأعراف: ١٨٩] .

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٥)، و ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٢)، و ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦)، و((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، و((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٢).

وقال سُبحانَه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم: ٢١] .

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً).

أي: وخلق لكم من نسائكم أبناء، وأبناء لأبنائكم، يسرعون في خدمتكم، ويقضون حوائجكم، وتنتفعون بهم [1].

***ما الفرق بين جعل وخلق ؟**

ذكر الزمخشري في أساس البلاغة[2] أن أصل فِعل (خلق) هو التقدير ولذلك يقال: خلق الخيّاط الثوب بمعنى قدّر أبعاده قبل أن يقصه. ثم قال: هذا الإستعمال: خلق الله الخلق على سبيل المجاز بمعنى أوجده على تقدير أوجبته حكمته سبحانه وتعالى. هذا هو الأصل.أما (جعل) لفظ عام في الأفعال وهو أعمّ من فَعَل وصَنَع.الخلق هو الإيجاد على تقدير توجيه حكمة الله سبحانه وتعالى ، الأصل الإيجاد على تقدير من غير مثال سابق.

والجعل فعل عام يحمل معاني كثيرة منها الصُنع وإيجاد الشيء من الشيء والتبديل والإعتقاد والظنّ والشروع في الشيء (جعل يُنشد قصيدته) يعني شرع وبدأ، الحكم بالشيء على الشيء والنسبة والتشريف أيضاً وفيها معنى الإيجاد. معاني كثيرة يذكرها أصحاب المعجمات، والذي رأيناه أن كلمة خلق وجعل إجتمعتا في أسلوب القرآن الكريم في أربعة عشر موضعاً؛ حيثما إجتمعتا تقدّم الخلق على الجعل لأن الخلق إيجاد والجعل شيء من شيء فهو من الخلق؛ لذلك في القرآن إذا بدأ الكلام يبدأ بالخلق (خلق) وإذا بنى عليها شيئاً يبني بـ (جعل) إلا في موضع واحد في سورة النساء.

في سورة النحل (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)) ثم قال بعدها (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ

---

[1] يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٤)، و((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦، ٥٨٧)، و((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)،و((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٨).

[2] أساس البلاغة ، ١/ ٩٥.

أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)).ولما يكون الخلق مجرّداً (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ (٤٥) النجم) يذكر الخلق بدون الجعل.

(وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ).

أي: ورزقكم الله- أيها الناس- من حلال الأموال والأطعمة والأشربة اللذيذة الصالحة.

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ).

أي: أفبالباطل يؤمن هؤلاء المشركون، وبنعم الله التي أنعم بها عليهم يكفرون، فلا يشكرون الله عليها، ولا يوحدونه، وينسبون نعمه إلى غيره، ويستعملونها في معصيته، والكفر به ؟!.

وقوله تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ).

- قولُه: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) فيه وضع الظاهر من أزواجكم موضع المضمر (منهن)؛ للإيذان بأن المراد: جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره.

- قولُه: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) فيه تأخيرُ المنصوبِ في الموضِعَينِ (أزواجًا - بَنينَ) عن المجرورِ (مِنْ أَنْفُسِكُمْ - مِنْ أَزْواجِكُمْ)؛ للتَّشويقِ وللاهتمامِ.

وتَقديمُ المجرورِ باللَّامِ على المجرورِ بـ (مِن)؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بعَودِ مَنفَعةِ الجَعْلِ إليهِم، إمدادًا للتَّشويقِ، وتَقْويةً له[1] .

- قولُه: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) استِفهامُ تَوبيخٍ على إيمانِهم بالباطِلِ.

وفيه تقديمُ الصِّلةِ (أَفَبِالْبَاطِلِ) على الفعلِ (يُؤْمِنُونَ)؛ للاهتِمامِ، أو لإيهامِ الاختِصاصِ؛ مُبالَغةً، أو لِرِعايةِ الفَواصِلِ[2] .

وقولُه: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) فيه التفات عن الخطاب السابق إلى الغيبة؛ للإيذان بأن حالهم استوجبت الإعراض عنهم، وصرف الخطاب إلى غيرهم من السامعين؛ تعجبا لهم

---

[1] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

[2] يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٤)،و ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

مما فعلوه؛ فإنه لما كان المقصود من الاستدلال المشركين، فكانوا موضع التوبيخ: ناسب أن يعرض عن خطابهم، وينالهم المقصود من التوبيخ بالتعريض.

وعلى قراءة تؤمنون بالتاء؛ فهو خطاب إنكار وتقريع لهم، والجملة بعد ذلك مجرد إخبار عنهم[1].

وقولُه تعالى: (وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) عطف على جملة التوبيخ، وهو توبيخ متوجه على ما تضمنه قولُه تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) إلى قولِه: (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) مِن الامتنان بذلك الخلق والرزق بعد كونهما دليلا على انفراد الله بالإلهية.

وضميرُ الغَيبةِ (هُمْ) في قولِه: (هُمْ يَكْفُرُونَ) ضمير فصل؛ لتأكيد الحكم بكفرانهم النعمة؛ لأن كفران النعمة أخفى من الإيمان بالباطل؛ لأن الكفران يتعلق بحالات القلب، فاجتمع في هذه الجملة تأكيدان: التأكيد الذي أفاده التقديم، والتأكيد الذي أفاده ضمير الفصل.

والإتيانُ بالمضارعِ (يُؤْمِنُونَ ويَكْفُرُونَ)؛ للدلالة على التجدد والتكرير.

وفي قولِه: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (العنكبوتِ): (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) [العنكبوت: ٦٧]؛ فزِيدَ في الآيةِ مِن سورةِ (النَّحلِ) هم، وخلت منها الآية من سورة (العنكبوت)؛ ووجه ذلك: أن في هذه السورة اتصل الخطاب (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) ثم عاد إلى الغَيبةِ فقال: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) فلا بد من تقييده بهم؛ لئلا يلتبس الغيبة بالخطاب والتاء بالياء، وما في العنكبوت اتصل بآيات استمرت على الغيبة، فلم يحتج إلى تقييده بالضمير[2].

---

[1] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٥).

[2] يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٦). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٧-٨٥٨)، و ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٦٢)، و((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٣-٣٠٤)، و ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٩).

رابعًا : حب الأخ.

الموضع الأول:-

﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾طه: ٢٩ - ٣٥

(وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي) (٢٩).

أي: واجعل لي معينا من أهل بيتي أعتمد عليه، فيحمل عني بعض ثقل أمر الدعوة والرسالة، ويساعدني على ما كلفتني به [١] .

(هَارُونَ أَخِي) (٣٠).

أي: اجعَلْ هارونَ أخي وزيري[٢].

(اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) (٣١).

أي: قَوِّ بهارونَ ظَهري، وأعِنِّي به [٣] .

كما قال تعالى: (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ) [القصص: ٣٥] .

(وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) (٣٢).

أي: واجمع بيني وبينه في النبوة، وتبليغ الرسالة، فاجعله نبيا مثل ما جعلتني نبيا، وأرسله معي إلى فرعون [٤] .

(كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا) (٣٣).

أي: اجعل هارون أخي عضدا لي؛ من أجل أن نتعاون معا على عبادتك، فنصلي لك، ونعظمك بالتسبيح لك كثيرا، تنزيها عما لا يليق بك .

---

[١] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤)، و((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٨٩)، و((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٦٣٢)، و ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

[٢] يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٧٨)، و((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، و ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٥٦).

[٣] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، و((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٠)

[٤] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، و((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩١)، و((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا) (٣٤).

أي: ونذكُرَك ذِكرًا كثيرًا فنُثنيَ عليك ونحمَدَك على نِعَمِك، ونَصِفَك بما يليقُ بك من صِفاتِ كمالِك[1].

(إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) (٣٥).

أي: إنَّك كنتَ بنا مُبصِرًا، لا يخفَى عليك شَيءٌ مِن أمْرِنا[2].

وقولُه تعالى: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي) خص هارون عليه السلام؛ لفرط ثقته به، ولأنه كان فصيح اللسان مقوالا؛ فكونه من أهله مظنة النصح له، وكونه أخاه أقوى في المنا صحة، وكونه الأخ الخاص؛ لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي.

وقَدَّمَ (وَزِيرًا) على هَارُونَ؛ اعتناءً بشأْنِ الوِزارةِ ، وبيانًا لاهتمامِه بالإعانةِ، كما يقتضيه الحالُ [3] .

وخصّ هارون لفرط ثقته به ولأنه كان فصيح اللسان مقوالاً، فكونه من أهله مظنة النصح له، وكونه أخاه أقوى في المناصحة، وكونه الأخ الخاصّ لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي.

وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي) [طه: ٢٩، ٣٠]، فصَرَّحَ بالوزيرِ؛ لأنَّه الأوَّلُ في الذِّكرِ، وكَنَّى عنه في (الشُّعراءِ)، حيث قال: (فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) [الشعراء: ١٣]، أي: ليكونَ لي وزيرًا، وفي (القصصِ): (فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا)[القصص: ٣٤] ، أي: اجعَلْه لي وزيرًا، فكنَّى عنه بقولِه: (رِدْءًا)؛ لبَيانِ الأوَّلِ [4] .

- قولُه تعالى: (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) كلاهما على صيغة الدعاء، وفصل الأول عن الدعاء السابق -أي: لم يعطف عليه-؛ لكمال الاتصال بينهما؛ فإن شد الأزر عبارة عن جعله وزيرا، وأما الإشراك في الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف [5] .

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، و((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٢)، و((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦١.

[2] ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٤).

[3] يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤).

[4] يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٦)، و((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥).

[5] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣).

- قولُه: (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) المراد بالأزر الظهر؛ ليناسب الشد؛ فيكون الكلام تمثيلا لهيئة المعين والمعان بهيئة مشدود الظهر بحزام ونحوه وشاده .

- قولُه تعالىٰ: (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا) قدم التسبيح؛ لأنه تنزيهه تعالىٰ في ذاته وصفاته، وبراءته عن النقائص، ومحل ذلك القلب، والذكر والثناء علىٰ الله بصفات الكمال، ومحله اللسان؛ فلذلك قدم ما محله القلب علىٰ ما محله اللسان[1] ، أو لأن التسبيح لما كان ذكرا خاصا؛ لكونه بالتنزيه الذي أعلاه التوحيد؛ أتبعه العام فقال: (وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا) ، وهذان الوجهانِ بناءً علىٰ تفسيرِ التسبيحِ بالتنزيهِ.

وعلّل موسىٰ - عليه السلام - سؤاله تحصيل ما سأله لنفسه ولأخيه، بأن يسبّحا الله كثيراً ويذكُرَا الله كثيراً. ووجه ذلك أنّ فيما سأله لنفسه تسهيلاً لأداء الدعوة بتوفر آلاتها ووجود العون عليها، وذلك مظنة تكثيرها.

وأيضاً فيما سأله لأخيه تشريكه في الدعوة ولم يكن لأخيه من قبل، وذلك يجعل من أخيه مضاعفة لدعوته، وذلك يبعث أخاه أيضاً علىٰ الدعوة.

ودعوةُ كلّ منهما تشتمل علىٰ التعريف بصفات الله وتنزيهه فهي مشتملة علىٰ التسبيح، وفي الدعوة حثّ علىٰ العمل بوصايا الله تعالىٰ عباده، وإدخال الأمة في حضرة الإيمان والتّقوىٰ، وفي ذلك إكثار من ذكر الله بإبلاغ أمره ونهيه. ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ بعد هذه الآيات { اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تَنِيَا في ذِكري } [طه: ٤٢]، أي لا تضعفا في تبليغ الرسالة، فلا جرم كان في تحصيل ما دعا به إكثار من تسبيحهما وذكرهما الله.

وأيضاً في التعاون علىٰ أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة، إذ يمكن أن يقتسما العملَ الضروري لحياتهما فيقلّ زَمن اشتغالهما بالضروريات وتتوفّر الأوقات لأداء الرسالة. وتلك فائدة عظيمة لكليهما في التبليغ.

---

[1] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٩).

والذي ألجأ موسىٰ إلىٰ سؤال ذلك علمُه بشدّة فرعون وطغيانه ومنعه الأمة من مفارقة ضلالهم، فعلم أنّ في دعوته فتنة للداعي فسأل الإعانة علىٰ الخلاص من تلك الفتنة ليتوفّرا للتسبيح والذكر كثيراً.

- قولُه تعالىٰ: (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) تعليل لسؤاله شرح صدره وما بعده.

الموضع الثاني:-

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾

طه:٩٤

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي).

أي: ثم أخذ موسىٰ بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه، فقال هارون مستعطفا أخاه: (يا ابن أم)، لا تأخذ بلحيتي، ولا بشعر رأسي [1] .

(إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ).

أي: إني خشيت أن تقول لي إن لحقت بك: فرقت بين جماعة بني إسرائيل.

(وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي).

أي: وخشيت أن تقول: ولم تحفظ وصيتي وتعمل بها، ولم تراع ما أمرتك به حين استخلفتك علىٰ قومي [2].

وقوله تعالىٰ: (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي).

- قولُه: (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ) عدَلَ عن (يا أخِي) -وإنْ كان شقيقَه- إلىٰ (ابنَ أُمَّ) فخص الأم بالإضافة؛ استعظاما لحقها، واستعطافا وترقيقا لقلبه؛ فذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ، وهو تذكير بأقوىٰ أواصر الأخوة، وهي آصرة الولادة من بطن واحد، والرضاع من لبان واحد، ولأن الأم يسوءها ما يسوءه، وهي أرق من الأب .

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٦)، و ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٩)، و ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، و((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٨١)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٧)، و((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)،و ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، و ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩١).

وعطَفَ (الرَّأسَ) على (اللِّحْيةِ)؛ لأن أخذه من لحيته أشد ألما، وأنكى في الإذلال [1] .

- قولُه: (إِنِّي خَشِيتُ) استئناف سيق لتعليل موجب النهي، ببيان الداعي إلى ترك المقاتلة، وتحقيق أنه غير عاص لأمره، بل ممتثل به.

وفي قوله تعالى: {بين ، بَني} جناس، وطرد وعكس.

الموضع الثالث:-

تظهر سورة يوسف نمطين من أنماط الحب الأخوي المتمثل بالحب والمودة بين الأخوة أو فقدانهما.

الأول: الحب الذي يتحول إلى غيرة فحسد، ثم إلى غدر، ثم عودة إلى طلب السماح ، وما يتبع الأخوة من وجوب التسامح.

والثاني حب الأخوّة الذي تجد فيه الرأفة والحنان ، والتوجيه والتسامح .

نمطان من الحب تعرفهما البشرية في كل مجتمع .

أما الحب الأول فهو حب أخوة يوسف لأبيهم الذي تحول إلى غيرة، حين أحسوا أن أباهم لا يمنحهم الحب الذي يمنحه لأخيهم ، فسولت لهم أنفسهم أن يتخلصوا منه ، ليحظوا بحب أبيهم .

ونجد في هذه الصورة تعابير دالة على حب الأبناء لأبيهم ، من خلال لفظين وسياقين دالين :

الأول: يظهر في عنصر الغيرة والتحاسد بين الأخوة من أمهات مختلفات ، بحسب ما يرون من تنوع الحب الأبوي .

وعنصر التفاوت في الاستجابات للغيرة والحسد في نفوس الأخوة ، فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار الجريمة ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجب ليلتقطه بعض السيارة نفورا من الجريمة [2].

تبدأ ملامح غيرة الأخوة بلفظ اسم التفضيل (أحب) الذي ورد أول القصة للدلالة على أنهم كانوا يشعرون بحب أبيهم لهم ، ولكن الغيرة خيلت لهم أن يوسف أحب إلى أبيهم منهم .

والغيرة أثر من آثار الحب، قد يكون معتدلا، فيدل على المودة، وقد يتجاوز الحد فيتحول إلى مرض، وهاجس مؤذ.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٢).

[2] في ظلال القرآن ٤/ ٦٨١ وانظر سورة يوسف ٥٢، لمحات نفسية في القرآن الكريم ١٤٢ وما بعدها .

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾يوسف: ٨

الأخوة هنا من خلال تعبير (ليوسف) والتوكيد باللام ، قد تأكد في نفوسهم تفضيل أبيهم لأخيهم وأخيه الآخر من أمه،والتوكيد هنا يبين المرارة والحسد اللذين ملكا نفوسهم ، ثم وصفهم لأبيهم بأنه في ضلال مبين، يبين أن حبهم لأبيهم ،هو الذي أثار حسدهم ، ثم تخطيطهم للخلاص من يوسف، وتخيلوا بعد ذلك أنهم يمكن أن يتوبوا ويعودا صالحين .

ويضيف وصفهم لأنفسهم بأنهم عصبة اجتماعهم ، وتعاضدهم على الغيرة من حب أبيهم ليوسف مع كونهم الأكثر عددًا ، وفي هذا إشارة إلى عزلهم لأخيهم من أبيهم ، فيوسف وأخوه من بعد في كفة وهم العصبة في كفة أخرى ، والعصبة تشير إلى الكثرة ، فهي عند الزمخشري العشرة فصاعدا.[1] وعند ابن الأثير من العشرة إلى الأربعين [2].

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ يوسف: ٩

وقد بينت الآية مقصد الأخوة من فعلتهم ، (يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) .

وهذا يعني أن حبهم لأبيهم ورغبتهم في الاستئثار به هو الذي جعلهم يخططون للتخلص من أخيهم يوسف.

ويفيد لفظ (يَخْلُ) الرغبة في التملك في أن يكون حب أبيهم لهم وحدهم ، وهذا مظهر من مظاهر الحب حين يكون أنانيا .

ويعكس الحوار درجات من الحب والأنانية؛ فمن الأخوة من بلغت الغيرة أوجها في نفسه، فاقترح أن يقتل يوسف أو يطرحه في الأرض الخلاء.

وقد وصف هذا المقترح بأنه جريمة طريفة في هدفها وغايتها، ولو جاز التعبير لوصفت بأنها جريمة نبيلة الهدف إلا أنها افتقدت إلى المنطق، بل إنها تعتمد على منطق أخرق في اقتراح ارتكاب جريمة ثم التوبة بعد ذلك.

---

[1] الكشاف ٢/ ٣٠٤.

[2] النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٤٣وانظر لسان العرب (عصب).

و هناك درجة من الغيرة أقل حدة ،ويغلب عليها شيء من الحب الأخوي ، حين اقترح الأخ أن يلقى يوسف في جب (بئر).

وفي هذا محاولة لإعطائه فرصـــة للنجاة، ولأن تركه في العراء يعني الموت المؤكد ، أما إلقاؤه في الجب، ففيه رغبة لا شعورية لإبقاء أخيه حيا .

وتضيف عبارة (إن كنتم فاعلين) الإحساس بحب الأخ الكبير لأخيه يوسف ، وشفقته عليه، وفيه رجاء بتخفيف الأذى إذا كان لابدّ من إبعاد يوسف ،فليكن بالخطة الأسلم التي يضمن فيها سلامته، (ولكن ضـــميرا واحدا فيهم يرتعش لهول ما هم مقدمون عليه، فيقترح حلا يريحهم من يوســف ، ويخلي لهم وجه أبيهم ، ولكنه لا يقتل يوســف ، ولا يلقيه في أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك ، إنما يلقيه في الجب على طريق القوافل ، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدى القوافل فتنقذه و تذهب به بعيدا)[1] .

ولكنه مواجه بإصرار الأخوة جميعا، ولهذا وافقهم على مضض، ويظهر حوار الأخوة وقد غلب الحقد على نفوســهم ، وملكتهم رغبة التخلص من أخيهم ، بينما يبدو الأخ الأكبر مغلوبا على رأيه غير قادر على مواجهة الموقف المتعنت لأخوته.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾

يوسف:١٠

دل تقديم جملة جواب الـ شرط على خوف اعترى نفس المتكلم، فأسرع إلى تقديم طريقة للتخلص من يو سف وبدأ بنهيهم عن قتله خ شية من الله ورحمة بوالدهم فالـ شر في نفوس الـ صالحين لا يتـ صاعد ، ويبدو أن هذا القرار الذي توصل إليه خلصه من صراع داخلي اعتراه واعترى إخوته ، بدليل سرعة تنفيذه فالتركيب الأصلي للجملة (إن كنتم فاعلين ما أقوله لكم فلا تقتلوا يوسف وألقوه في غيبت الجب) فتصبح الجملة عادية صادرة من متكلم حيادي الغايات ، يطرح رأيه دون أن يعنيه أو يؤرقه تنفيذ الطرح الآخر، أما وقد يرغب بتنفيذ رأيه فإنه يبدأ يعرضه مؤخرا جملة الشرط (إن كنتم فاعلين).

---

[1] في ظلال القرآن ٤/ ٦٩٩.

وتنكير (قائل) "والعدول عن اسمه إلى التنكير والوصفية لعدم الجدوى من معرفة شخصه وإنما المهم أنه من جماعتهم"[1].

وذهب المفسرون إلى أن هذا القائل هو أخوهم الأكبر[2].

وهذا الاختيار أخف الاختيارات في وسيلة الخلاص من يوسف ، وإبعاده عن أبيهم الذي يحبونه حبًا شديدًا تحول إلى حقد على يوسف الذي شغل به أبوهم.

إنه يوفر احتمالية إنقاذه، وإبقائه حيا إن ورد الوراد للاستقاء من الجب.

ويبدو أن الشفقة التي دفعت هذا الأخ لمنع أخوته من قتل يوسف أو الإمعان في أذاه، هو الذي جعله يبادر إلى محاولة افتداء أخيه بعد أن اتهم بالسرقة .

إن الذي عرض على الملك أن يأخذ أحد الأخوة مكان الأخ الصغير ،لا بد أن يكون الأخ الكبير؛لأن في نفسه بقية حب لأخيه ولأبيه ، والقول وإن نسب إلى الجميع (وقالوا) إلا أن مسار القصة و سمات الشخصيات توحي أن المتحدث هو الأخ الأكبر،لأنه خاف وأشفق على أبيه المنكوب الطاعن السن، ولأنه أحسّ بحرج الموقف من مواجهة أبيهم لهم، وقد أعطوه موثقا وأشهدوا عليهم الله أن يعيدوا أخاهم سالما ، يظهر هذا في سياق الحديث عن عودة الأخوة إلى أبيهم بعد فشلهم في ا ستعادته من الملك(يو سف) حيث يبرز هنا صوت الأخ الكبير _فيما يبدو- ليذكرهم بصعوبة الموقف الذي هم فيه، ويذكرهم بإشارة إلى تفريطهم بيوسف؛ لذا يعلن أمام أخوته أنه لن يبرح مكانه حتى يأذن له أبوه .

وفي هذا إحساس بالغ بالألم والفشل من مواجهة أبيه.

وتبدو شخصية الأخ هنا أكثر إدراكًا لصعوبة الموقف من بقية الأخوة ؛ لأنه الكبير كما هو مرجح، وفي كبر السن حكمة وتأن قد لا توجد عند الشباب المندفعين المتهورين من أخوة يوسف:

---

[1] ابن عاشور ، ١٣/ ٢٢٤.

[2] يُنظر تفسير الطبري ١٥/ ٥٦٥.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾يوسف: ٨٠

ويبدو أن شخصية يوسف الموهوبة المتميزة هي التي أثارت حسد الأخوة حتىٰ دبروا ما دبروا، وشخصيته هي التي فرضت نفسها علىٰ كل مفصل من مفاصل القصة.

ويمثل النبي يوسف في علاقاته مع أخوته صور الحب الأخوي الصادق.

وتبدأ هذه الصور في مشاهد إنسانية رائعة تبدأ بدخول الأخوة علىٰ يوسف الملك حيث عرفهم ولم يعرفوه.

وهنا نلمح حكمة التصرف والصبر الذي عرف به النبي يو سف حين لم يظهر غضبه عليهم، ولم ينبئهم بشخصه، وإنما اغتنمها فرصة لا ستدراجهم بجلب أخيه إلىٰ مصر، فأكرمهم، ووعدهم بالمنزلة التي يكرمون بها، ثم أتبع ذلك العرض بالتهديد، بأنه سيحرمهم المؤونة إن لم يأتوا بأخيهم.

"وجملة " خير الحاكمين" أن كان علىٰ التصميم فهو الذي حكمه لا جور فيه أو الذي حكمه لا يستطيع أحد نقضه، وإن كان علىٰ إرادة وهو خير الحاكمين لي فالخبر مستعمل في الثناء للتعريض بالسؤال أن يقدر له ما فيه رأفة في رد غربته"[1].

وقد ورد في الآية أنماط من الجمل التي أثرت في تدرج أحداثها، والتنقل بينها بطريقة مشوقة تقطع الأنفاس لمعرفة ما سيجري بعدها، فالحدث الذي يصور قدومهم جاء بصيغة الفعل الماضي (جاء) و(فدخلوا)(عرفهم) و (جهزهم) وفعل الأمر (ائتوني) واتبعت بجمل مسبوقة بنفي أو بنهي لتسهم في فاعلية الأمر الذي يريدهم الائتمار به (لم تأتوني) و(لا تقربون).

وفي أول لقاء ليوسف مع أخيه، وقد دبر لإبقائه عنده بتهمة سرقة صواع الملك، نجد موقفا إنسانيا رائعا للأخوة الصادقة الحانية؛ فقد خاف النبي يوسف علىٰ أخيه أن يرعب من التهمة التي ستوجه إليه، فبادره بطمأنته قبل أن ينفذ خطة اتهامه بالسرقة.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾يوسف: ٦٩

---

[1] يُنظر: ابن عاشور، ١٣/ ٤٠.

وتجسد الآية مشاعر الأخوة الصادقة الفياضة بالحب والمودة والشفقة عليه من لحظات خوف أو فزع في مكان يرعب فيه أي شخص إذا اتهم بسرقة حاجة من حاجات الملك فكيف بالغريب؟ فهو لم يخبره بخبر عابر، وإنما جاء الإخبار مع اختيار عجيب دقيق لألفاظ الخطاب الأخوي في الآية الواحدة يتمثل في:

-الفعل الدال على الحب والرعاية والحنان (آوى) ، الذي فيه دلالة الحماية والحنان والحب .

-الجملة الاسمية المؤكدة بمؤكدين (إني) والضمير (أنا).

- التصريح بشخصه دون مقدمات(إني أنا أخوك).

- قوة العلاقة والمتانة بين المضاف والمضاف إليه ، أي ضم إليه أخاه الشقيق ، أنا أخوك يوسف أخبره بذلك واستكتمه.

- خطاب مطمئن مباشر ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يوسف: ٦٩

فخطاب يوسف لأخيه (لا تبتئس)،يسهم في إظهار حب يوسف لأخيه وخوفه عليه .

وهذه أهم صفة من صفات الأخوة الإنسانية في كون الأخ موطن أمن وصفاء وراحة، وملجأ يلجأ إليه الأخوان.

وكان لهذا التنوع في خطاب الأخ لأخيه الوقع الكبير؛ لأن الآية الكريمة لم تحدثنا عما أحس به أخو سيدنا يوسف، لأن الخطاب الودي لم يترك مجالا للخوف أو القلق .

ويظهر القصر هنا؛ "فأكدوا الخبر بـ (إن) وبالجملة الاسمية وبالقصر الذي أفاد ضمير الفصل أي أنا مقصور على كون أخاك لا أجنبي عنك ، فهو قصر قلب لاعتقاده أن الذي كلمه لاقرابة بينه وبينه"[1].

أما الأخوة فإن مواقفهم في الإساءة لأخيهم يوسف قد تكررت .

وهم يجهلون شخصه ، حين يفاجأون بدليل سرقة أخيهم ، وهو وجود الصاع في رحله ، فلم يبادروا للدفاع عنه، وإنما علقوا بما يشبه الإقرار بفعلته:

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾يوسف: ٧٧

---

[1] ابن عاشور ، ١٣/ ٢٦.

وتبدو محبة يو سف لأخوانه مرة أخرىٰ، فمع ا ستيائه من موقفهم أخفىٰ أ ساه وأ سفه،وأقر في نف سه تشخيص نفسياتهم ، فهم شر مكانا من الموقف الذي هم فيه .

ولم يبد انزعاجه منهم، إنما وكل أمرهم لله، لأن الله يعلم كذب دعواهم.

وبعد أن تتوالىٰ المواقف والأحداث ، وتنتهي النهاية التي يعرف فيها الأخوة أن الملك هو أخوهم يوسف، يوجه إليهم الخطاب معاتبا ومذكرا بفعلتهم السابقة ، ويدور حوار بينهم:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾يوسف: ٨٩ – ٩٠

و "هل" مفيدة للتحقيق لأنها بمعنىٰ قد في الاستفهام فهو توبيخ علىٰ ما يعلمونه محققا من أفعالهم مع يوسف – عليه السلام– وأخيه أي أفعالهم الذميمة مفيدة التوبيخ.

واستفهام النبي يوسف هنا تقريري ، وقد أحسوا به مؤنبا لهم ، حين سألوه متعجبين مقرين (أإنك لأنت يوسف).

أما قول يوسف (وهذا أخي) ففيه من المعاني ما فيه.

يظهر مفاجأة الحدث علىٰ الأخوة المقرين بذنبهم، وقد أوصلتهم الأحداث إلىٰ التأكد من تفضيل الله ليوسف، لما منحه هذه المكانة من العز والعدل والرحمة، وأن أباهم لم يكن ليؤثره عليهم، لولا فضل الله الذي اختاره للنبوة.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ يوسف: ٩١

ويؤكد القسم (تالله) والتوكيد ب(قد) حرجهم وإقرارهم بتفضيل الله ليو سف ، وليس أبوهم فقط. واستدعىٰ هذا اعترافهم بخطئهم بحقه.

و تختتم الآيات المشهد بأن يعلن الأخ (يوسف) تسامحه مع إخوانه وعفوه عنهم .

والتسامح أثر من آثار الحب ، بل هو من أهم سماته، لقد سمع اعترافهم بتفضيل الله له عليهم وتحركت في نفسه الأخوة ، فضلا عن حكمته الصادرة عن كونه نبيا. منحه الله العلم والحكمة :

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يوسف: ٩٢

وقد تنبه الزمخشري إلى لغة الحب الأخوي والشفقة على الأخوة في هذه الآية ، وأنه فضلا عن مشاعر الأخوة فيها من خلق النبوة، والتسامح بقوله:(كان كلامه شفقة عليهم وتنصيحا لهم في الدين ، لا معاتبة، وتثريبا إيثارا لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب ، وينفث فيه المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك ثأره المكروب ، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها)[1].

إن تجاوز يوسف عن تذكير أخوانه بتفصيلات ما فعلوا به فيه من سمات النبوة والخلق العالي ، والأخوة الصادقة ما يمثله لفظ الاجتباء الذي خص به الله يو سف ، فاكتفى (بإ سباله الستر على فعل أخوته، حيث قال : وقد أحسن بي ربي إذ أخرجني من السجن ، ولم يذكر خلاصه من البئر .[2]

لم يكتف يوسف بطمأنة أخوته وعفوه عنه، وإنما زاد الجو النفسي ـ راحة واطمأنانا بان دعا الله لهم أن يغفر لهم ما فرط منهم من اعتداء وظلم عليه، ويذكرهم بأن الله أرحم الراحمين، فإن كان يوسف قد عفا عنهم، فإن الله هو الأرحم، ولابد أن يشملهم بالمغفرة .

وقد قيل إن الرسول – صلى الله عليه وسلم– أخذ بعضادتي الكعبة يوم الفتح ، فقال لقريش : ما تروني أني فاعل بكم ؟ قالوا: نظن خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت . فقال : أقول لكم ما قال أخي يوسف (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ).[3]

وبعد أن وقفت على الآيات الكريمة وقمت بتفسيرها وتحليلها ، خلصت منها إلى أنَّ شجرة (الحب) الحقيقي بحسب مفهوم الإسلام ، وما يتفرَّع عنها من أغصان ، هي التي جعلت الأسرة مترابطة متماسكة، يُجِلُّ صغيرُها كبيرَها ، ويرأف كبيرُها على صغيرها .

فتماسكت الأُسرة وتحابَبَتْ وكان العطفُ والحنان والرعاية والتكافل هو الأساس والحاكم، إلى درجة النهي عن قول﴿ ... أُفٍّ ... ﴾ أو النظرة الحادة المؤذية إلى الوالدين .

وبعد أن انتهيت من سياقات أفراد الأسرة الأدنين، أنتقل إلى سياقات أفراد الأسرة غير الأدنين وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم.

---

[1] الكشاف ١/ ٦٠٢.

[2] ينظر لطائف الإشارات ٣/ ١٦٨.

[3] الكشاف ١/ ٦٠٣.

المبحث الثاني:- الأسرار البلاغية في مقام ذكر أفراد الأسرة غير الأدنين.

أولًا:- حب ذوي القربى.

الموضع الأول:-

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾النساء: ٨

(قيل إن هذه الآية منسوخة بآية الفرائض {يوصيكم آلله...} وكان حكم هذه الآية معمولا به قبل أن تنزل آية الفرائض فلما نزلت أعطي كل ذي حق حقه).

إن هؤلاء الفقراء من الأقارب الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين إذا حضروا قسمة مال وافر، فإن نفوسهم تتوق إلى شيء منه، فأمر الله تعالى بأن يعطوا شيئا من المال يكون برا بهم، وجبرا لقلوبهم الكسيرة، ومنعا من أن يسري الحسد إلى نفوسهم.

ويأمر الله تعالى المؤمنين بأن يقولوا لهؤلاء قولا طيبا، تطيب به نفو سهم عندما يعطون، حتى لا يثقل على أبي النفس منهم ما يأخذه، ويرضى الطامع في أكثر مما أخذ بما أخذ.

القول المعروف – القول الذي يطيب به الخاطر.

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ).

أي: إذا حضَر توزيعَ الميراثِ الأقاربُ غيرُ الوارثين، والأيتامُ، والمحتاجون[1] .

(فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ)

أي: فأعطوهم شيئًا ممَّا تيسَّر من هذه التَّركة؛ برًّا بهم، وإحسانًا إليهم، وجبرًا لخواطرهم بما لا يضُرُّكم؛ فإنَّ نفوسَهم متشوِّفةٌ إليه.

(وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)

أي: فلْتقولوا لهم قولًا حسنًا جميلًا، تَطِيبُ به نفوسُهم[2].

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢١)، و((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، و((تفسير ابن عثيمين-سورة آل عمران)) (١/ ٥٣).

[2] يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٥٠)، و((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، و ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).

وفي قوله تعالى: (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ) قدم أولي القربى على اليتامى والمساكين؛ لـــأن الإحسان إلى القرابة أفضل من الإحسان إلى اليتيم والمسكين ؛ ولهذا لمَّا أخبرتْ ميمونةُ بنتُ الحارثِ رضِي اللهُ عنها رسولَ الله - صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- أنَّها أعتقتْ جاريةً لها، قال لها رسولُ الله - صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-: ((لو أَعطيتِها أخوالَكِ، كان أَعظمَ لأجْرِكِ))[1] ؛ فدلَّ هذا على أنَّ إعطاء ذَوِي الأرحامِ أفضلُ من إعطاءِ البَعيدِ [2] .

في قوله تعالى: (فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ): قال: مِنْهُ ولم يقل: (فيه)؛ لأنَّ هؤلاء يُعطون من رأس المال، ومِن أصله، وأمَّا أموال اليتامى فقال الله تعالى: (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)، فقال: فِيهَا ولم يقُل: (منها)؛ لأنَّهم يُرزقون بعدَ الاتِّجار بها، فيُعطَون من الرِّبح، وهو إشـارةٌ إلى أنه ينبغي لِوليِّ اليتيم أن يتَّجِرَ في ماله حتى يحصُـلَ على ما يَرزقُه فيه، أمَّا هنا فقال: (فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) أي: من هذا المال الذي يُقسَم أمامَهم[3].

والأمر في قوله: {فارزقوهم منه} محمول عند جمهور أهل العلم على الندب من أوّل الأمر.

الموضع الثاني:-

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ النساء: ٣٦

عطف تشـريع يختصّ بالمعاملة مع ذوي القربى والضـعفاء، وقُدّم له الأمرُ بعبادة الله تعالى وعدمِ الإشراك على وجه الإدماج، للاهتمام بهذا الأمر وأنّه أحقّ ما يتوخّاه المسلم، تجديداً لمعنى التوحيد في نفوس المسلمين كما قُدّم لذلك في طالع السورة بقوله: { اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة } [النساء: ١].

والمناسبة هي ما أريد جمعه في هذه السورة من أحكام أواصر القرابة في النسب والدين والمخالطة.

---

[1] رواه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩) واللفظ له.

[2] يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).

والخطاب للمؤمنين، قُدّم الأمر بالعبادة على النهي عن الإشراك، لأنّهم قد تقرّر نفي الشرك بينهم وأريد منهم دوام العبادة لله، والاستزادة منها، ونُهُوا عن الشرك تحذيراً ممّا كانوا عليه في الجاهلية. ومجموع الجملتين في قوة صيغة حصْر؛ إذ مفاده: اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره فاشتمل على معنى إثبات ونفي، كأنّه قيل: لا تعبدوا إلاّ الله. والعدول عن طريق القصر في مثل هذا طريقة عربية جاء عليها قول السموأل، أو عبدِ الملك بن عبد الرحيم الحَارثي:

تَسيلُ على حَدّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنا ... وليستْ على غَيْرِ الظُّبَات تَسيل

وإنّما يصار إليها عندما يكون الغرض الأول هو طرف الإثبات، ثم يقصد بعد ذلك نفي الحكم عمّا عدا المثبت له، لأنّه إذا جيء بالقصر كان المقصد الأوّل هو نفي الحكم عمّا عدا المذكور وذلك غير مقتضَى المقام هنا، ولأجل ذلك لمّا خوطب بنو إسرائيل بنظير هذه الآية خوطبوا بطريقة القصر في قوله: { وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تبعدون إلاّ الله وبالوالدين إحساناً } [البقرة: ٨٣] الآية، لأنّ المقصود الأوّل إيقاظهم إلى إبطال عبادة غير الله، لأنّهم قالوا لموسى: (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) ولأنّهم عبدوا العجل في مدّة مناجاة موسى ربَّه، فأخذ عليهم الميثاق بالنهي عن عبادة غير الله.

وكذلك البيت فإنّ الغرض الأهمّ هو التمدّح بأنّهم يُقتلون في الحرب، فتزهق نفوسهم بالسيوف، ثم بدا له فأعقبه بأنّ ذلك شنشنة فيهم لا تتخلّف ولا مبالغةَ فيها.

و{شيئاً} منصوب على المفعولية لـ(تُشركوا) أي لا تجعلوا شريكاً شيئاً ممّا يعبد كقوله: { ولن نشرك بربنا أحداً } [الجن: ٢] ويجوز انتصابه على المصدرية للتأكيد، أي شيئاً من الإشراك ولو ضعيفاً كقوله: { فلن يضروك شيئاً } [المائدة: ٤٢].

وقوله: {وبالوالدين إحسانا} اهتمام بشأن الوالدين إذ جعل الأمر بالإحسان إليهما عقب الأمر بالعبادة، كقوله: { أن اشكر لي ولوالديك } [لقمان: ١٤]، وقوله: { يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الإنسان بوالديه } [لقمان: ١٣، ١٤]، ولذا قدّم معمول (إحساناً) عليه تقديماً للاهتمام إذ لا معنى للحصر هنا لأنّ الإحسان مكتوب على كلّ شيء، ووقع المصدر موقع الفعل، وإنّما عدّي الإحسان بالباء لتضمينه معنى البرّ، وشاعت تعديته بالباء في القرآن في مثل هذا.

والإحسان إنّما يعدّىٰ بالباء إذا أريد به الإحسان المتعلّق بمعاملة الذات وتوقيرها وإكرامها، وهو معنىٰ البرّ ولذلك جاء (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن)؛ وإذا أريد به إيصال النفع المالي عُديّ بإلىٰ، تقول: أَحْسَنَ إلىٰ فلان، إذا وصله بمال ونحوه.

{وذي القربىٰ} صاحب القرابة، والقربىٰ فُعلىٰ، اسم للقُرب مصدرِ قَرُب كالرجعي، والمراد بها قرابة النسب، كما هو الغالب في هذا المركّب الإضافي: وهو قولهم: ذو القربىٰ، وإنّما أمر بالإحسان إليه استبقاء لأواصر الودّ بين الأقارب، إذ كان العرب في الجاهلية قد حرّفوا حقوق القرابة فجعلوها سبب تنافس وتحاسد وتقاتل.

وقوله: {واليتامىٰ والمساكين} هذان صنفان ضعيفان عديما النصير، فلذلك أوصي بهما.

والجار هو النزيل بقرب منزلك، ويطلق علىٰ النزيل بين القبيلة في جوارها، فالمراد بـ ـ ـ ـ {الجار ذي القربىٰ} الجار النسيب من القبيلة، وبـ {الجار الجنب} الجار الغريب الذي نزل بين القوم وليس من القبيلة، فهو جُنُب، أي بعيد، مشتقّ من الجانب، وهو وصف علىٰ وزن فُعُل، كقولهم: ناقة أجُد، وقيل: هو مصدر، ولذلك لم يُطابق موصوفه.

وفسّر بعضهم الجار ذا القربىٰ بقريب الدار، والجُنُبُ بعيدها، وهذا بعيد، لأنّ القربىٰ لا تعرف في القرب المكاني، والعرب معروفون بحفظ الجوار والإحسان إلىٰ الجار، وأقوالهم في ذلك كثيرة، فأكّد ذلك في الإسلام لأنّه من محامد العرب التي جاء الإسلام لتكميلها من مكارم الأخلاق، ومن ذلك الإحسان إلىٰ الجار.

وقوله: {والصاحب بالجنب} هو المصاحب الملازم للمكان، فمنه الضيف، ومنه الرفيق في السفر، وكلّ من هو مُلمّ بك لطلب أن تنفعه، وقيل: أراد الزوجة.

{وابن السبيل} هو الغريب المجتاز بقوم غيرَ ناوٍ الإقامة، لأنّ من أقام فهو الجار الجُنب. وكلمة (ابن) فيه مستعملة في معنىٰ الانتساب والاختصاص، كقولهم: أبو الليل، وقولهم في المثل: أبوها وكيَّالُها. والسبيل: الطريق السابلة، فابن السبيل هو الذي لازمَ الطريق سائراً، أي مسافراً، فإذا دخل القبيلة

فهو ليس من أبنائها، فعرَّفوه بأنه ابن الطريق، رمىٰ به الطريق إليهم، فكأنَّه وَلَدَه. والوصـاية به لأنَّه ضعيف الحيلة، قليل النصير، إذ لا يهتدي إلىٰ أحوال قوم غير قومه، وبلد غير بلده.

وكذلك {ما ملكت أيمانكم} لأنّ العبيد في ضعف الرقّ والحاجة وانقطاع سبل الخلاص من سادتهم، فلذلك كانوا أحقّاء بالوصاية.

وجملة: {إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً} تذييل لجملة الأمر بالإحسان إلىٰ من سمّاهم بذمّ موانع الإحسان إليهم الغالبة علىٰ البشر. والاختيال: التكبّر، افتعال من الخُيَلاء، يقال: خالَ الرجلُ خَوْلا وخَالا. والفخور: الشديد الفخر بما فعل، وكلا الوصفين منشأ للغلظة والجفاء، فهما ينافيان الإحسان المأمور به، لأنّ المراد الإحسان في المعاملة وترك الترفّع علىٰ من يظنّ به سبب يمنعه من الانتقام.

ومعنىٰ نفي محبّة الله تعالىٰ نفي رضاه وتقريبه عمّن هذا وصفه، وهذا تعريض بأخلاق أهل الشرك، لما عرفوا به من الغلظة والجفاء، فهو في معنىٰ التحذير من بَقايا الأخلاق التي كانوا عليها[1].

وقوله: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْسانًا وَبِذِي الْقُرْبىٰ) فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقوله: (وَبِذِي الْقُرْبىٰ) بزيادة الباء، وفي سورة البقرة عبَّر بـ(وَذِي الْقُرْبَىٰ) بغير الباء في قوله: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ) [البقرة: ٨٣] ، وإعادة الباء تدل علىٰ التوكيد والمبالغة؛ فبولغ في آية النساء؛ لأنها في حق هذه الأمة، ولم يبالغ في آية سورة البقرة؛ لأنها في حق بني إسرائيل، والاعتناء بهذه الأمة أكثر من الاعتناء بغيرها؛ إذ هي خير أمة أخرجت للناس [2] .

---

[1] يُنظر: ابن عاشور٥ / ٧٠.

[2] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣١). وقيل: أُعيدتِ الباءُ في سُورة النِّساء دون سورةِ البقرة؛ نظرًا للسِّياق؛ ففي سورة النساء، كان الكلامُ عن القَراباتِ من أوَّلِ السُّورةِ إلىٰ آخِرها، وليس فقط في هذه الآيةِ؛ ففي الآيةِ الأولىٰ من مطلعِ السُّورة قال تعالىٰ: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ، ثم بعدَها قوله تعالىٰ: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا؛ إذنْ ذِكر (الباء) مع ذِي القُربىٰ في هذه الآيةِ مِن

وقيل: فائدة إعادة حرف الجر وبذي القربى الإشارة إلى أن الإحسان إلى القرابة مستقل، بمعنى أنه لو فرض أن الرجل ليس له والدان، فحق القرابة ثابت، وليس مبنيا على حق الوالدين، وتابعا له؛ لأن الوالدين قد يكونان ميتين؛ فحق القرابة باق.

وقيل: إنَّ إعادةَ الجارِّ لإفادة التَّنويع .

- قوله: (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)، فيه التَّعبيرُ بالبَعضِ عن الكلِّ؛ حيثُ قال: (مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) ومعلومٌ أنَّ المرادَ ما ملَكْتُم[1].

كذلك يلحظ في هذه الآية - وفي كثير غيرها - أن التوجيه إلى البر يبدأ بذوي القربي - قرابة خاصة أو عامة - ثم يمتد منها ويتسع نطاقه من محورها ، إلى بقية المحتاجين إلى الرعاية من الأسرة الأنسانية الكبيرة ، وهذا المنهج يتفق - أولا - مع الفطرة ويسايرها ؛ فعاطفة الرحمة ، ووجدان المشاركة ، يبدآن أولا في البيت . في الأسرة الصغيرة ، وقلما ينبثقان في نفس لم تذق طعم هذه العاطفة ولم تجد مس هذا الوجدان في المحضن الأول .

والنفس كذلك أميل إلى البدء بالأقربين - فطرة وطبعا - ولا بأس من ذلك ولا ضير ؛ ما دامت توجه دائما إلى التوسع في الدائرة من هذه النقطة ومن هذا المحور . . ثم يتفق المنهج - ثانيا - مع طريقة التنظيم الاجتماعي الإسلامية : من جعل الكافل يبدأ في محيط الأسرة ؛ ثم ينساح في محيط الجماعة ، كي لا يركز عمليات التكافل في يد الأجهزة الحكومية الضخمة - إلا عندما تعجز الأجهزة الصغيرة المباشرة - فالوحدات المحلية الصغيرة أقدر على تحقيق هذا التكافل : في وقته المناسب وفي سهولة ويسر . وفي تراحم وود يجعل جو الحياة لائقا ببني الإنسان !

وهنا يبدأ بالإحسان إلى الوالدين ، ويتوسع منهما إلى ذوي القربى ، ومنهم إلى اليتامى والمساكين ولو أنهم قد يكونون أبعد مكانا من الجار . ذلك أنهم أشد حاجة وأولى بالرعاية - ثم الجار ذو القرابة .

سورة النِّساء كان لمراعاةِ التَّفصيلِ والتوكيدِ، أمَّا في آية سورة البقرة فليس السياقُ في القَرابات؛ فحُذِفت (الباء) في (ذي القربى)؛ مراعاةً للإيجازِ. يُنظر: ((لمسات بيانية)) لفاضل السامرائي (ص: ٢٤١).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١١).

فالجار الأجنبي – مقدمين على الصاحب المرافق – لأن الجار قربه دائم ، أما الصاحب فلقاؤه على فترات – ثم الصاحب المرافق – وقد ورد في تفسيره أنه الجليس في الحضر الرفيق في السفر – ثم ابن السبيل . العابر المنقطع عن أهله وماله . ثم الرقيق الذين جعلتهم الملابسات " ملك اليمين " ولكنهم يتصلون بآصرة الإنسانية الكبرى بين بني آدم أجمعين .

الموضع الثالث:-

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٩٠

لقد جاء هذا الكتاب لينشيء أمة وينظم مجتمعا ، ثم لينشيء عالما ويقيم نظاما .

جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ؛ إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة والقومية والعصبية .

ومن ثم جاء بالمباديء التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات ، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود .

جاء (بالعدل) الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل ، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب، والغني والفقير، والقوة والضعف.

إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع ، وتزن بميزان واحد للجميع .

وإلى جوار العدل . . (الإحسان) . . يلطف من حدة العمل الصارم الجازم ، ويدع الباب مفتوحا لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثارا لود القلوب ، وشفاء لغل الصدور ، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحا أو يكسب فضلا .

والإحسان أوسع مدلولا ، فكل عمل طيب إحسان ، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه ، وعلاقاته بأسرته ، وعلاقاته بالجماعة ، وعلاقاته بالبشرية جميعا .

ومن الإحسان (إيتاء ذي القربى) إنما يبرز الأمر به تعظيما لشأنه، وتوكيدا عليه، وما يبني هذا على عصبية الأسرة، إنما يبنيه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى).

أي: إن الله يأمر عباده بالإنصاف، وأداء حقوق الله تعالى، وحقوق عباده، ويأمر بالإحسان في عبادته، والإحسان إلى خلقه، ويأمر بإعطاء الأرحام حقوقهم، وإسداء الخير إليهم؛ صلة لهم[1] .

وقولُه: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى...) فيه افتتاح الجملة بحرف التوكيد؛ للاهتمام بشأن ما حوته، وتصديرهما باسم الجلالة للتشريف، وذكر (يَأْمُرُ وينْهَى) دونَ أن يُقالَ: (اعدِلوا واجتَنِبوا الفَحشاءَ)؛ للتَّشويقِ[2] .

- فيه إيثارُ صيغةِ الاستِقْبالِ (يَأْمُرُ وَيَنْهَى)؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والاستِمْرارِ .

وقولُه: (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) تخصيصٌ بعدَ تعميمٍ؛ للمُبالَغةِ[3] .

- قولُه تعالى: (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) خص الله تعالى بالذكر نوعا من الفحشاء والمنكر، وهو البغي؛ اهتماما بالنهي عنه، وسدا لذريعة وقوعه؛ لأن النفوس تنساق إليه بدافع الغضب، وتغفل عما يشمله من النهي من عموم الفحشاء؛ بسبب فشوه بين الناس .

وهذه الآية قيل: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر، وقد اشتملت على أفانين من البلاغة؛ منها الإيجاز: حيث أمر في أول الآية بكل معروف، ونهى بعد ذلك عن كل منكر، وختم الآية بأبلغ العظات، وصاغ ذلك في أوجز العبارات.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، و((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٦، ١٦٧)، و((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)،و ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٤-٢٥٧).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٤).

[3] يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٨).

ومنها: - المقابلة اللطيفة {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ} أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة وهو من المحسنات البديعية.

- ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه {وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ} بعد لفظ الإحسان الذي هو عام.

- صحة التقسيم؛ فقد استوفى فيها جميع أقسام المعنى؛ فلم يبق معروف إلا وهو داخل في نطاق الأمر، ولم يبق منكر إلا وهو داخل في حيز النهي، وقدم ذكر العدل؛ لأنه واجب، وتلاه بالإحسان؛ لأنه مندوب؛ ليقع نظم الكلام على أحسن ترتيب، وقرنهما في الأمر؛ لأن الفرض لا يخلو من خلل وتفريط يجبره الندب والنوافل، وخص ذا القربى بالذكر بعد دخوله في عموم من أمر بمعاملته بالعدل والإحسان؛ لبيان فضل ذي القربى، وفضل الثواب عليه.

ومنها: حسن النسق في ترتيب الجمل وعطفها بعضها على بعض كما ينبغي، حيث قدم العدل وعطف عليه الإحسان؛ لكون الإحسان اسما عاما، وإيتاء ذي القربى خاص؛ فكأنه نوع من ذلك الجنس، ثم أتى بجملة الأمر مقدمة، وعطف عليها جملة النهي.

ومنها: تمكين الفاصلة؛ لأن مقطع الآية مستقر في حيزه، ثابت في مقره، وقراره معناه متعلق بما قبله إلى أول الكلام، ولأنه لا تحسن الموعظة إلا بعد التكليف ببيان الأمر والنهي، ولأن أي لفظة حذفتها من ألفاظ الآية يختل المعنى بحذفها اختلالا ظاهرا، وينقص نقصًا بينًا [1] .

الموضع الرابع:-

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ الإسراء: ٢٦

{وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ}

القرابة كلها متشعبة عن الأبوة فلا جرم انتقل من الكلام على حقوق الأبوين إلى الكلام على حقوق القرابة.

وللقرابة حقّان: حق الصلة، وحق المواساة. وقد جمعهما جنس الحق في قوله؛ {حقه}. والحوالة فيه على ما هو معروف وعلى أدلة أخرى.

والخطاب لغير معين مثل قوله: { إما يبلغن عندك الكبر } [الإسراء: ٢٣].

---

[1] يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦).

والعدول عن الخطاب بالجمع في قوله: {ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين} [الإسراء: ٢٥] الآية إلى الخطاب بالإفراد بقوله: {وآت ذا القربى} تفنن لتجنب كراهة إعادة الصيغة الواحدة عدة مرات، والمخاطب غير معين فهو في معنى الجمع. والجملة معطوفة على جملة { ألا تعبدوا إلا إياه} [الإسراء: ٢٣] لأنها من جملة ما قضى الله به.

والإيتاء: الإعطاء. وهو حقيقة في إعطاء الأشياء، ومجاز شائع في التمكين من الأمور المعنوية كحسن المعاملة والنصرة.

ومنه قول النبي: ورجل آتاه الله الحِكمة فهو يقضي بها الحديث.

وإطلاق الإيتاء هنا صالح للمعنيين كما هي طريقة القرآن في توفير المعاني وإيجاز الألفاظ.

وقد بينت أدلّة شرعية حقوق ذي القربى ومراتبها: من واجبة مثل بعض النفقة على بعض القرابة مبينة شروطها عند الفقهاء، ومن غير واجبة مثل الإحسان.

وليس لها ته تعلق بحقوق قرابة النبي لأن حقوقهم في المال تقررت بعد الهجرة لما فرضت الزكاة وشرعت المغانم والأفياء وقسمتها؛ ولذلك حمل جمهور العلماء هذه الآية على حقوق قرابة النسب بين الناس. وعن علي زين العابدين أنها تشمل قرابة النبي.

والتعريف في {القربى} تعريف الجنس، أي القربى منك، وهو الذي يعبر عنه بأن (ال) عوض عن المضاف إليه.

وبمناسبة ذكر إيتاء ذي القربى عطف عليه من يماثله في استحقاق المواساة.

وحق المسكين هو الصدقة. قال تعالى: { ولا تحاضون على طعام المسكين } [الفجر: ١٨] وقوله: {أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة } [البلد: ١٤-١٦]. وقد بينت آيات وأحاديث كثيرة حقوق المساكين وأعظمها آية الزكاة ومراتب الصدقات الواجبة وغيرها.

{وابن السبيل} هو المسافر يمر بحي من الأحياء، فله على الحي الذي يمر به حق ضيافته. وقَولُه تعالى: (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا).

- قَولُه: (وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ) ابتدأ بحق القريب تأكيدا لحقه، ولأنه هو مقتضىٰ ـ طبيعة الترتيب، ولأنه إذا سخت النفوس بإيتاء حق القريب ومرنت عليه، اعتادت الإيتاء وصار من ملكاتها، فسهل عليها إيتاء كل حق ولو كان لأبعد الناس، إلىٰ غير ذلك.

وقد جمعت هذه الآية ثلاث وصايا مما أوصىٰ الله به بقوله: { وقضىٰ ربك } الآيات [الإسراء: ٢٣].

فأما إيتاء ذي القربىٰ فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين رعياً لاتحاد المنبت القريب وشدًّا لآصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة.

وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبها عن حوزتها.

وأما إيتاء المسكين فلمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس و شقاء، علىٰ أن ذلك المسكين لا يعدو أن يكون من القبيلة في الغالب أقعده العجز عن العمل والفقر عن الكفاية.

وأما إيتاء ابن السبيل فلإكمال نظام المجتمع، لأن المارّ به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلىٰ الإيواء ليلاً ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص، وإلىٰ الطعام والدفء أو التظلل وقاية من إضرار الجوع والقر أو الحر.

- قولُه: (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) فيه ذِكْرُ المفعولِ المُطلَقِ (تَبْذِيرًا) بعدَ قولِه: (وَلَا تُبَذِّرْ)؛ لتأكيدِ النَّهيِ، كأنَّه قيلَ: (لا تُبذِّرْ، لا تُبذِّرْ)، مع ما في المصدرِ من استحضارِ جِنْسِ المَنْهيِّ عنه استحضارًا لِما تُتَصَوَّرُ عليه تلك الحقيقةُ بما فيها من المفاسِدِ[1] .

الموضع الخامس:-

﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ الشورىٰ: ٢٣

{ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ}.

اسم الإشارة مؤكد لنظيره الذي قبله، أي ذلك المذكور الذي هو فضل يحصل لهم في الجنّة هو أيضاً بشرىٰ لهم من الحياة الدنيا.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٦).

والعائد من الصلة إلى الموصول محذوف تقديره: الذي يبشر الله به عباده. وحذفه هنا لتنزيله منزلة الضمير المنصوب باعتبار حذف الجار على طريقة حذفه في نحو قوله: {{ واختار موسى قومه }} [الأعراف: ١٥٥] بتقدير: من قومه، فلما عومل معاملة المنصوب حذف كما يحذف الضمير المنصوب.

وجَمعُ العباد المضافُ إلى اسم الجلالة أو ضميرِه غَلَب إطلاقه في القرآن في معرض التقريب وترفيع الشّأن، ولذلك يكون موقع {الذين آمنوا وعملوا الصالحات} هنا موقع عطف البيان على نحو قوله تعالى: { { ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون } } [يونس: ٦٢، ٦٣] إذ وقع {الذين آمنوا} موقع عطف البيان من {أولياء الله}.

ثم ينتقل السياق إلى قضية أخرى متعلقة برسول الله - صلى الله عليه وسلم- وأمر الدعوة {قُل لاَّ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ..} [الشورى: ٢٣] يعني: قل لهم يا محمد: إنني لا أريد منكم أجراً على الدعوة والمهمة التي أقوم بها من أجلكم، وأنت لا تقول هذه الكلمة إلا إذا كنت قد عملتَ عملاً تستحق عليه أجراً بالفعل.

فالمعنى كأنه يقول: إن العمل الذي أقوم به من أجلكم كان يجب أن يكون لي عليه أجر، لأنني أنصحكم وأدلكم على ما ينفعكم، ومع ذلك لا أريد منكم أجراً.

-وقولُه: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) استئناف ابتدائي بمناسبة ذكر ما أعد للمشركين من عذاب، وما أعد للمؤمنين من خير، وضمير جماعة المخاطبين مراد به المشركون لا محالة.

وليس في الكلامِ السَّابقِ ما يُتوهَّمُ منه أن يكونَ (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ) جوابًا عنه؛ فتَعيَّنَ أنَّ جُملةَ (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) كلام مستأنف استئنافا ابتدائيا، وكان موقعها هنا لمناسبة ما سبق من ذكر حجاج **المشركين** وعنادهم؛ فإن مناسبتها لما معها من الآيات موجودة؛ إذ هي من جملة ما واجه به القرآن محاجة **المشركين**، ونفى به أوهامهم، واستفتح بصائرهم إلى النظر في علامات صدق الرسول؛ فهي جملة ابتدائية وقعت معترضة بين جملة (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ، وجُملةِ (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً)[1] .

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨١).

وابتُدِئتْ الآيةُ بـ (قُلْ)؛ إما لأنها جواب عن كلام صدر منهم، وإما لأنها مما يهتم بإبلاغه إليهم .

والمودة: المحبة والمعاملة الحسنة المشبهة معاملة المتحابين، والكلام على تقدير مضاف، أي: معاملة المودة، أي: المجاملة؛ بقرينة أن المحبة لا تسأل؛ لأنها انبعاث وانفعال نفساني، ومعنى الآية على ما يقتضيه نظمها: لا أسألكم على القرآن جزاء إلا أن تودوني، أي: أن تعاملوني معاملة الود، أي: غير معاملة العداوة، من أجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي.

- قولُه: (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) تَذييلٌ لِجُملةِ (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا)، والمعنى: وكلما عمل مؤمن حسنة زدناه حسنا من ذلك الفضل الكبير .

والاقتراف: افتعال من القرف، وهو الاكتساب؛ فالاقتراف مبالغة في الكسب نظير الاكتساب، وليس خاصا باكتساب السوء .

وفي قولِه: (نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) لما كانت الحسنة مأخوذة من الحسن؛ جعلت الزيادة فيها من الزيادة في الحسن؛ مراعاة لأصل الاشتقاق؛ فكان ذكر الحسن من الجناس المعبر عنه بجناس الاشتقاق ، ويتعين أن الزيادة فيها زيادة من غير عمله، ولا تكون الزيادة بعمل يعمله غيره؛ لأنها تصير عملا يستحق الزيادة أيضا، فلا تنتهي الزيادة؛ فتعين أن المراد الزيادة في جزاء أمثالها عند الله، وهذا معنى قولِه تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) [الأنعام: ١٦٠] .

وجُملةُ (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) تذييل وتعليل للزيادة؛ لقصد تحقيقها بأن الله كثيرة مغفرته لمن يستحقها، كثير شكره للمتقربين إليه، والمقصود بالتعليل هو وصف (الشكور)، وأما وصف (الغفور) فقد ذكر للإشارة إلى ترغيب المقترفين السيئات في الاستغفار والتوبة ليغفر لهم؛ فلا يقنطوا من رحمة الله .

الموضع السادس:-

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر: ٧

الفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم، فأفاءه الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح.

{مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ} أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ} إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه.

روى الإمام أحمد، عن عمر- رضي الله عنه- قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم- خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وما بقي جعله في الكُرَاع والسلاح في سبيل الله -عزّ وجلّ-.

وقوله تعالى: {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ} أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء، كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقوله تعالى: {وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟} أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر. عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة أشيء وجدته في كتاب الله تعالى أو عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-؟ قال: بل شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف، فما وجدت فيه الذي تقول، قال: فما وجدتِ فيه: {وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟}؟ قالت: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة، قالت: فلعله في بعض أهلك، قال: فادخلي فانظري، فدخلت فنظرت، ثم خرجت، قالت: ما رأيت بأساً، فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح: {وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ} [هود: ٨٨]. وقال الإمام

أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحُسن، المغيرات خلق الله -عزّ وجلّ-. قال: فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها أُم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت، قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وفي كتاب الله تعالى؟ فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت: {وَمَآ آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ}، قالت: بلى؟ قال: فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- نهى عنه، قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لم تجامعنا.

وقد ثبت أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم- قال: "إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه" .

وقوله تعالى: {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ} أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه[1].

{مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ}.

جمهور العلماء جعلوا هذه الآية ابتداء كلام، أي على الاستئناف الابتدائي، وأنها قصد منها حكم غير الحكم الذي تضمنته الآية التي قبلها.

ومن هؤلاء مالك وهو قول الحنفية فجعلوا مضمون الآية التي قبلها أموالَ بني النضير خاصة، وجعلوا الآية الثانية هذه إخباراً عن حكم الأَفيَاء التي حصلت عند فتح قرىً أخرىٰ بعد غزوة بني النضير.

---

[1] يُنظر: مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، (ج٢/ ٤٦٩)، بيروت، دار القلم ١٩٨٦م.

مثل قريظة سنة خمس، وفَدكٍ سنة سبع، ونحوهما فعيّنته هذه الآية للأصناف المذكورة فيها، ولا حق في ذلك لأهل الجيش أيضاً وهذا الذي يجري على وفاق كلام عمر بن الخطاب في قضائه بين العباس وعلي فيما بأيديهما من أموال بني النضير على احتمال فيه، وهو الذي يقتضيه تغيير أسلوب التعبير بقوله هنا: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى} بعد أن قال في التي قبلها { وما أفاء الله على رسوله منهم } [الحشر: ٦] فإن ضمير {منهم} راجع لـ { الذين كفروا من أهل الكتاب } [الحشر: ٢] وهم بنو النضير لا محالة. وعلى هذا القول يجوز أن تكون هذه الآية نزلت عقب الآية الأولى، ويجوز أن تكون نزلت بعد مدة فإن فتح القُرى وقع بعد فتح النضير بنحو سنتين.

ومن العلماء من جعل هذه الآية كلمة وبياناً للآية التي قبلها، أي بياناً للإجمال الواقع في قوله تعالى: { فما أوجفتم عليه من خيل } الآية [الحشر: ٦]، لأن الآية التي قبلها اقتصرت على الإعلام بأن أهل الجيش لا حقّ لهم فيه، ولم تبين مستحقَّه وأشعر قولُه { ولكن الله يسلط رسله على من يشاء } [الحشر: ٦] أنه مَالٌ لله تعالى يضعه حيث شاء على يد رسوله - صلى الله عليه وسلم- فقد بيّن الله له مستحقّيه من غير أهل الجيش.

فموقع هذه الآية من التي قبلها موقع عطف البيان؛ ولذلك فصلت.

وممن قال بهذا الشافعيّ وعليه جرى تفسير صاحب الكشاف.

ومقتضى هذا أن تكون أموال بني النضير مما يُخَمّس ولم يرو أحد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- خمّسها بل ثبت ضدُّه، وعلى هذا يكون حكم أموال بني النضير حكماً خاصاً، أو تكون هذه الآية ناسخة للآية التي قبلها إن كانت نزلت بعدها بمدة.

قال ابن الفرس: آية {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى}.

وهذه الآية من المشكلات إذا نُظرت مع الآية التي قبلها ومع آية الغنيمة من سورة الأنفال.

ولا خلاف في أن قوله تعالى: {وما أفاء الله على رسوله منهم} [الحشر: ٦] الآية إنما نزلت فيما صار لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أموال الكفار بغير إيجاف، وبذلك فسّرها عُمر ولم يخالفه أحد.

وأما آية الأنفال فلا خلاف أنها نزلت فيما صار من أموال الكفار بإيجاف، وأما الآية الثانية من الحشر فاختلف أهل العلم فيها فمنهم من أضافها إلى التي قبلها، ومنهم من أضافها إلى آية الأنفال وأنهما نزلتا بحكمين مختلفين في الغنيمة الموجف عليها، وأن آية الأنفال نسخت آية الحشر.

ومنهم من قال: إنها نزلت في معنى ثالث غير المعنيين المذكورين في الآيتين: واختلف الذاهبون إلى هذا: فقيل نزلت في خراج الأرض والجزية دون بقية الأموال، وقيل نزلت في حكم الأرض خاصة دون سائر أموال الكفار (فتكون تخصيصاً لآية الأنفال) وإلى هذا ذهب مالك.

والتعريف في قوله تعالى: {من أهل القرى} تعريف العهد وهي قرى معروفة عُدّت منها: قريظة، وفَدَك، وقرى عُرينة، واليُنْبُع، ووادي القُرى، والصفراء، فتحت في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - واختلف الناس في فتحها أكان عنوة أو صلحاً أو فَيئاً. والأكثر على أن فَدَك كانت مثل النضير.

ولا يختص جعله للرسول بخصوص ذات الرسول - صلى الله عليه وسلم- بل مثله فيه أيمة المسلمين.

وتقييد الفيء بفيء القرى جَرى على الغالب لأن الغالب أن لا تفتح إلا القرى لأن أهلها يحاصَرون فيستسلمون ويعطُون بأيديهم إذا اشتد عليهم الحصار، فأما النازلون بالبوادي فلا يُغلبون إلا بعد إيجاف وقتال فليس لقيد {من أهل القرى} مفهوم عندنا، وقد اختلف الفقهاء في حكم الفيء الذي يحصل للمسلمين بدون إيجاف؛ فمذهب مالك أنه لا يخمَّس وإنما تخمس الغنائم وهي ما غنمه المسلمون بإيجاف وقتال.

وذهب أبو حنيفة إلى التفصيل بين الأموال غير الأرضين وبين الأرضين.

فأما غير الأرضين فهو مخمّس، وأما الأرضون فالخيار فيها للإمام بما يراه أصلح إن شاء قسّمها وخمس أهلها فهم أرقاء، وإن شاء تركها على ملك أهلها وجعل خراجاً عليها وعلى أنفسهم.

وذهب الشافعي إلى أن جميع أموال الحرب مخمّسة وحمل حكم هاته الآية على حكم آية سورة الأنفال بالتخصيص أو بالنسخ.

وذهب أبو حنيفة إلى التفصيل بين الأموال غير الأرضين وبين الأرضين.

فأما غير الأرضين فهو مخمّس، وأما الأرضون فالتفويض فيها للإمام بما يراه أصلح إن شاء قسّمها وخمس أهلها فهم أرقاء، وإن شاء أقرّ أهلها بها وجعل خراجاً عليها وعلى أنفسهم.

وهذه الآية اقتضت أن صنفاً مما أفاء الله على المسلمين لم يجعل الله فيه نصيباً للغزاة وبذلك تحصل معارضة بين مقتضاها وبين قصر آية الأنفال التي لم تجعل لمن ذكروا في هذه الآية إلا الخمس، فقال جمع من العلماء: إن آية الأنفال نسخت حكم هذه الآية.

وقال جمع: هذه الآية نسخت آيةَ الأنفال.

وقال قتادة: كانت الغنائم في صدر الإسلام لهؤلاء الأصناف الخمسة ثم نسخ ذلك بآية الأنفال، وبذلك قال زيد بن رومان: قال القرطبي ونحوه عن مالك.

على أن سورة الأنفال سابقة في النزول على سورة الحشر لأن الأنفال نزلت في غنائم بدر و سورة الحشر نزلت بعدها بسنتين.

إلا أن يقول قائل: إن آية الأنفال نزلت بعد آية الحشر تجديداً لما شرعه الله من التخميس في غنائم بدر، أي فتكون آية الحشر ناسخة لما فعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في قسمة مغانم بدر، ثم نسخت آية الأنفال آية الحشر.

فيكون إلحاقها بسورة الأنفال بتوقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم- وقال القرطبي: قيل إن سورة الحشر نزلت بعد الأنفال، واتفقوا على أن تخميس الغنائم هو الذي استقر عليه العمل، أي بفعل النبي - صلى الله عليه وسلم- وبالإجماع.

وليس يبعد عندي أن تكون القرى التي عنتها آية الحشر فتحت بحالة مترددة بين مجرد الفيء وبين الغنيمة، فشُرع لها حكم خاص بها، وإذ قد كانت حالتها غير منضبطة تعذر أن نقيس عليها ونُسخ حكمها واستقرّ الأمر على انحصار الفتوح في حالتين: حالة الفيء المجرد وما ليس مجردَ فيء.

وسقط حكم آية الحشر بالنسخ أو بالإجماع.

والإجماع على مخالفة حكم النص يعتبر ناسخاً لأنه يتضمن ناسخاً، وعن معمر أنه قال: بلغني أن هذه الآية ـــ أي آية {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى} ـــ نزلت في أرض الخراج والجزية.

و{كي لا يكون دولة} تعليل لما اقتضاه لام التمليك من جعله ملكاً لأصناف كثيرة الأفراد، أي جعلناه مقسوماً على هؤلاء لأجل أن لا يكون الفيء دُولة بين الأغنياء من المسلمين، أي لئلا يتداوله الأغنياء ولا ينال أهلَ الحاجة نصيب منه.

والمراد بـ{الأغنياء} الذين هم مظنة الغنى، وهم الغُزاة لأنهم أغنياء بالمغانم والأنفال.

{وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ}.

اعتراض ذيّل به حكم فَيْء بني النضير إذ هو أمر بالأخذ بكل ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومما جاءت به هذه الآيات في شأن فَيْء النضير، والواو اعتراضية، والقصد من هذا التذييل إزالة ما في نفوس بعض الجيش من حزازة حرمانهم مما أفاء الله على رسوله - صلى الله عليه و سلم- من أرض النضير.

والإيتاء مستعار لتبليغ الأمر إليهم، جعل تشريعه وتبليغه كإيتاء شيء بأيديهم كما قال تعالى: { خذوا ما آتيناكم بقوة } [البقرة: ٦٣ و٩٣] واستعير الأخذ أيضاً لقبول الأمر والرضى به والعمل.

وعطف على هذا الأمر تحذير من المخالفة فأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسوله - صلى الله عليه و سلم- ، وعطف الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيات يدل على أن التقوى هي امتثال الأمر واجتناب النهي.

والمعنى: واتقوا عقاب الله لأن الله شديد العقاب، أي لمن خالف أمره واقتحم نهيه[1].

وبعد أن انتهيت من سياقات ذوي القربى ، أنتقل إلى سياقات ذوي الأرحام ، وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم.

ثانيًا:- حب ذوي الأرحام.

الموضع الأول:-

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء: ١

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ).

---

[1] يُنظر : ابن عاشور : ٢٨/ ٨١.

أي: امتثلوا ما أمركم الله تعالىٰ به، واجتنبوا ما نهاكم عنه؛ فإن تساؤلكم به، وتعظيمكم له سبحانه، من الموجب الداعي لتقواه؛ حتىٰ إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم، تو سلتم بها بالسؤال بالله، فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل كذا؛ لعلمه بما قام في قلب الغير من تعظيم الله الذي يمنعه أن يرد من سأله بالله؛ فكما عظمتم الله تعالىٰ بذلك، فلتعظموه أيضا بتقواه سبحانه [1].

كما قرن تعالىٰ بين التقوىٰ وصلة الرحم ليدل علىٰ أهمية هذه الرابطة الإنسانية، فالناس جميعاً من أصل واحد، وهم إخوة في الإنسانية والنسب، ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهب الأخضر واليابس، وتقضي علىٰ الكهل والوليد.

(وَالْأَرْحَامَ)

أي: واحذروا من أن تقطعوا أرحامكم، وتفرطوا في أداء حقهم ، وكما تتوصلون بهذه الصلة فيما بينكم لعظمها من أجل قضاء حاجة، أو نيل مأرب، فآتوها حقها [2].

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

أي: إن الله -تعالىٰ- مراقب لجميع أعمالكم، وحافظ لها، ومن جملة ذلك ما أمركم به من تقوىٰ ربكم، ورعاية حرمة أرحامكم [3].

وقوله: (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ): فيه تكريرٌ للأمر بالتقوىٰ، وتذكيرٌ لبعض آخر من موجبات الامتثال به؛ فإن سؤال بعضهم بعضا بالله - تعالىٰ- بأن يقولوا: أسألك بالله، وأنشدك الله، علىٰ سبيل الاستعطاف، يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه [4] .

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩، ٣٥٠)، و ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، و ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٠)، و ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، و ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦).

[4] ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢)، و ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

وتعليقُ الاتِّقاءِ بالاسـمِ الجليل (الله)؛ لمزيدِ التأكيدِ والمبالغة في الحَمْلِ على الامتثالِ بتربيةِ المهابة، وإدخالِ الرَّوعة؛ لوقوعِ التساؤُلِ به لا بغيرِه من أسمائِه – تعالى– وصِفاته[1] .

وفي قوله: (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) قرن الله سبحانه الأرحام با سمه الكريم؛ إيذانا بأن صلة الأرحام من الله بمكانٍ عظيم[2] .

– قوله: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا): خبرٌ جارٍ مجرَى التَّعليلِ للأمْرِ ووُجوبِ الامتثالِ به ، مع ما فيه من التوكيدِ بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة.

وإظهار الاسم الجليل الله؛ لتأكيده، وتقديم الجار والمجرور عليكم لرعاية الفواصل.

والتعبيرُ بصِيغة فَعيل في قوله: (رَقِيبًا)؛ للمُبالغةِ .

الموضع الثاني:-

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الأنفال: ٧٥

{والذين آمنوا من بعد و هاجروا و جا هدوا معكم فأولئك منكم} يعني: الذين هاجروا بعد الحديبية، وهي الهجرة الثانية {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض} نَسخ الله الميراثَ بالهجر والحِلْفِ بعد فتح مكَّة.

ردَّ الله المواريث إلى ذوي الأرحام: ابن الأخ والعمِّ وغيرهما {في كتاب الله} في حكم الله {إن الله بكل شيء عليم}.

وقول الله تعالى: وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله استدل به من ورث ذَوي الأرحام[3] .

– قَولُ اللهِ تعالى: (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) ا ستدل به من قال: إن القريب أولى بالصلاة على الميت من الوالي .

---

[1] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

[2] ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٣)، و((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٨)، و((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٧٦).

[3] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

- قَولُ اللهِ تعالىٰ: (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) قَولُه: (أَوْلَىٰ)- هو صيغة تفضيل- يفيد أن الولاية بين ذوي الأرحام لا تعتبر إلا بالنسبة لمحل الولاية الشرعية، فأولو الأرحام أولىٰ بالولاية ممن ثبتت لهم ولاية تامة أو ناقصة، كالذين آمنوا ولم يهاجروا في ولاية النصر في الدين، إذا لم يقم دونها مانع من كفر أو ترك هجرة، فالمؤمنون بعضهم لبعض أولياء ولاية الإيمان، وأولو الأرحام منهم بعضهم لبعض أولياء ولاية النسب [1].

وقولُه: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) تذييل مؤذن بالتعليل؛ لتقرير أولوية ذوي الأرحام بعضهم ببعض فيما فيه اعتداد بالولاية [2].

وختم هذه السورة بقوله: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) في غاية البراعة والحسن؛ إذ قد تضمنت أحكاما كثيرة في مهمات الدين وقوامه، وتفصيلا لأحوال؛ فصفة العلم تجمع ذلك كله، وتحيط بمبادئه وغاياته.

الموضع الثالث:-

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ الأحزاب: ٦

أخبر الباري تبارك وتعالىٰ عباده المؤمنين عن مقام النبي الرفيع، وشرفه السامي فبيّن أنه أحق بالمؤمنين من أنفسهم، وأن حقه أعظم من حقوق أنفسهم عليهم، وأن أمره ينبغي أن يقدّم علىٰ كل أمر، وحبّه ينبغي أن يفوق كل حبّ، فلا يُعصىٰ له أمر، ولا يُخالف في صغيرة أو كبيرة، لأنّ ذلك من مقتضىٰ ولايته العامّة عليهم، فإذا دعاهم إلىٰ الجهاد عليهم أن يلبّوا أمره مسرعين ولا ينتظروا أمر والد أو والدة، فإنه صلوات الله عليه بمنزلة الوالد لهم، لا يريد لهم إلا الخير، ولا يأمرهم إلا بما فيه خيرهم وصلاحهم وسعادتهم.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٠).

[2] يُنظر: تفسير ابن عاشور (١٠/ ٩٣).

وكما شرّف الله رسوله الكريم فجعل حقه أعظم الحقوق كذلك فقد شرّف زوجات الرسول الطاهرات فجعلهن أمهات للمؤمنين فأوجب احترامهم وتعظيمهن، وحرّم نكاحهن على الرجال، إكراماً لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- وحفظاً لحرمته في حياته وبعد وفاته، وذلك من الخصوصيات التي خصّ الله تعالى بها رسوله الكريم، ثم بيّن تعالى أن ذوي الأرحام أحق بإرث بعضهم البعض من الغير، فالقريب النسيب أحق بميراث قريبه من الأجنبي البعيد إلا إذا أراد الإنسان الوصية فإنّ الأجنبي يكون أحق من القريب لأنه لا وصية لوارث، وهذا الحكم ألا وهو توريث القريب دون الأجنبي هو حكم الله العادل الذي أنزله في دستوره وكتابه المبين، وجعله حكماً لازماً مسطّراً لا يُمّحى، والله تعالى أعلم.

{ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ}: الإخبار بلفظ النبوّة مشعر بـ (التعظيم والتكريم) لمقامه الشريف - صلى الله عليه وسلم - وكلُّ ما ورد من الخطاب، أو الإخبار بلفظ النبوة، أو الرسالة فإنما هو لإظهار شرف النبي - صلى الله عليه وسلم- ورفع مقامه، ومعنى (أولى) أي أحق وأجدر وهو (أفعل تفضيل)، لبيان أن حق الرسول أعظم الحقوق فهو أولى بالمؤمن من نفسه، ومهما كانت ولاية الإنسان على نفسه عظيمة فولايته - صلى الله عليه وسلم - عليها أعظم، وحكمه أنفذ، وحقه ألزم.

{وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ}: أي منزّلات منزلة الأمهات في وجوب الاحترام والتعظيم وحرمة النكاح أما فيما عدا ذلك من الأمور كالنظر إليهن، والخلوة بهن، وإرثهن فهنَّ كالأجنبيات.

{وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ}: أي أهل القرابة وأصحاب الأرحام.

والأرحام جمع رَحِم وهو في الأصل مكان تكوّن الجنين في بطن أمّه ثم أطلق على القرابة.

ومعنى الآية: أهل القرابة مطلقاً أحق بإرث قريبهم من المؤمنين والمهاجرين لأنّ لهم صلة القرابة به، وقوله تعالى: {مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ} متعلّق (بأولى) أي أحق بالإرث من المؤمنين والمهاجرين.

{أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ}: أي في التوارث، وقد كان الإرث في صدر الإسلام بالهجرة والمؤاخاة في الدين، فنسخ الله ذلك وجعل التوارث بالنسب والقرابة، روي عن الزبير- رضي الله عنه - أنه قال: لمّا قدمنا معشرَ قريش المدينة، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا

وأورثناهم، فآخى أبو بكر (خارجة بن زيد) وآخيتُ (كعب بن مالك) فوالله لو قد مات عن الدنيا ما ورثه غيري حتى أنزل الله {وَأُوْلُو ٱلأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ} فرجعنا إلى موارثنا.

{فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ}: المراد بالكتاب هنا (القرآن العظيم) أي فيما أنزله في القرآن من أحكام المواريث وقيل: المراد به (اللوح المحفوظ)، والقول الأول أظهر وأرجح.

{أَوْلِيَآئِكُمْ مَّعْرُوفاً}: المراد بالأولياء هنا هم (المؤمنون والمهاجرون) المذكورون في أول الآية والمراد بالمعروف (الوصية) والاستثناء في الآية هو (استثناء منقطع) على الرأي الراجح، ويصبح معنى الآية: أولو الأرحام أحق بالإرث من غيرهم فلا تورّثوا غير ذي رحم لكن فعلكم إلى أوليائكم من المؤمنين والمهاجرين الأجانب بأن توصوا لهم فإنّ ذلك جائز بل هم أحق بالوصية من ذوي الأرحام الوارثين.

{مَسْطُوراً}: أي مثبتاً بالأسطار في القرآن الكريم، أو حقاً مثبتاً عند الله تعالى لا يُمْحَى.

(مِنْ) في قوله تعالى: {مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ} هي (ابتدائية) وليست (بيانية) وأنّ المفضل عليه هم (المؤمنون والمهاجرون) والمفضّل هم {أُوْلُو ٱلأَرْحَامِ} كما تقول: زيد أفضل من عمرو، فالمفضّل زيد والمفضّل عليه هو عمرو، ويكون المعنى كما أسلفنا (أولو الأرحام أولى بالإرث من المؤمنين والمهاجرين).

وأمّا قوله تعالى: {وَأَزْوَٰجُهُ أُمَّهَٰتُهُمْ} ففيه تشبيه يسمى (التشبيه البليغ) فقد حذف منه وجه الشبه وأداة الشبه وأصل الكلام: أزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الاحترام والتعظيم وحرمة النكاح، وهذا كما تقول: محمد بحر أي أنه كالبحر في الجود والعطاء.

في قوله تعالى: {بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ} مجاز بالحذف تقدير الكلام: أولى بميراث بعضٍ أو بنفع بعض، وإنما يفهم تخصيص الأولوية هنا بالميراث من سياق الكلام إذ المسلمون جميعاً بعضهم أولى ببعض في التناصر والتراحم، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم كما ورد في الحديث الشريف؛ فلا تكون الأولوية بين أولي الأرحام إلا بالإرث إذ لا وجه لتخصيصهم بالنصرة أو الجماعة أو التعاون فإن ذلك واجب لجميع المسلمين.

- قولُه: (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) استئنافٌ بَيانيٌّ؛ فإنَّ قولَه تعالىٰ: وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ [الأحزاب: ٤] ، وقولَه: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) [الأحزاب: ٥] ، كان قد شمل في أول ما شمله إبطال بنوة زيد بن حارثة للنبي - صلىٰ الله عليه وسلم، - فكان بحيث يثير سؤالا في نفوس الناس عن مدىٰ صلة المؤمنين بنبيهم - صلىٰ الله عليه وسلم -؟ فلأجل تعليم المؤمنين حقوق النبي وحرمته، جاءت هذه الآية مبينة أن النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم.

- قولُه: (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) الكلام علىٰ تقدير مضاف، أي: أولىٰ بمنافع المؤمنين، أو بمصالح المؤمنين، فهذا المضاف حذف؛ لقصد تعميم كل شأن من شؤون المؤمنين الصالحة .

- قولُه: (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) عطف علىٰ حقوق النبي - صلىٰ الله عليه وسلم - حقوق أزواجه علىٰ المسلمين؛ لمناسبة جريان ذكر حق النبي عليه الصلاة والسلام، فجعل الله لهن ما للأمهات من تحريم التزوج بهن، وكذلك ما عدا حكم الزواج من وجوه المعاملة غير ما يرجع إلىٰ التعظيم؛ ولهذه النكتة جيء بالتشبيه البليغ ؛ للمبالغة في شبههن بالأمهات للمؤمنين [1] .

- قولُه: (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ) قيل: أريد بالمؤمنين خصوص الأنصار؛ بقرينة مقابلته بعطف والمهاجرين، علىٰ معنىٰ أصحاب الإيمان الكامل؛ تنويها بإيمان الأنصار؛ لأنهم سبقوا بإيمانهم قبل كثير من المهاجرين الذين آمنوا بعدهم؛ فإن الأنصار آمنوا دفعة واحدة لما أبلغهم نقباؤهم دعوة محمد - صلىٰ الله عليه وسلم - إياهم بعد بيعة العقبة الثانية .

وقيل: تخصيص المهاجرين بالعطف يدل علىٰ شرفهم وفضلهم؛ لأن المهاجر مؤمن، ففيه فضيلة الهجرة .

---

[1] يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٣)، و((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٨)، و((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٠٣).

- في قَولِه تعالى: (إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا) بلاغةُ القرآنِ في الاحترازِ في موضعِ الإيهامِ؛ لأنَّه لَمَّا قال تعالى: (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) قد يتوهم الإنسان أن من بينه وبينهم موالاة لا يمكن أن ينتفع بشيء من ماله؛ فاحترز -عز وجل- بقَولِه: (إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا) .

وجُملةُ (كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) تذييل لهذه الأحكام، وخاتمة لها مؤذنة بانتهاء الغرض من الأحكام التي شرعت مِن قولِه: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) [الأحزاب: ٥] إلى هنا؛ فالإشارةُ بقولِه: (ذَٰلِكَ) إلى المذكور من الأحكام المشروعة؛ فكان هذا التذييل أعم مما اقتضاه قولُه: (بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ).

وبهذا الاعتبار لم يكن تكريرًا له، ولكنه يتضمنه ويتضمن غيره، فيفيد تقريره وتوكيده تبعا .- وفِعلُ (كان) في قولِه: (كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)؛ لتقوية ثبوته في الكتاب مسطورا؛ لأن (كان) إذا لم يقصد بها أن اسمها اتصف بخبرها في الزمن الماضي، كانت للتأكيد غالِبًا [1] .

وبعد أن وقفت على الآيات الكريمة وقمت بتفسيرها وتحليلها ، خلصت منها إلى:-

- حثت الآيات السابقة على صلة الرحم والإحسان إلى الأقارب وحبهم ؛ فصلة الرحم سبب البركة وهدوء النفس واستقامة الذرية وصلاحها، وأما قاطع الرحم فهو مطرود من رحمة الله.
- صِلة الرّحم، طلاقة في الوجه، وطيبٍ في القول، لينٍ في المُعاملة، مشاركةٌ في الأفراح ومواساةٌ في الأتراح، وإحسان إلى المحتاج، مساندةٌ للمكروبِ وعيادة للمريض، وعفو عن الأخطاء والعثرات.
- توريث ذوي الأرحام مقدم على ميراث بيت مال المسلمين على الصحيح.

وجماعها: أن يبذل الإنسان لها من الخير ما يستطيع، ويدفع من الشر ما يستطيع.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٢).

الخاتمة

تتناول هذه الدراسة جماليات التعبير القرآني عن الحب الأسري وتأمل تراكيبه وأساليبه وتدبر معانيه والكشف عن دلالة تلك الجماليات وأسرارها البلاغية ولطائفها البيانية .

وقد اشتملت الدراسة على مقدمة ، وتمهيد ، ومبحثين .

وبعد البحث والاستقصاء توصل البحث إلى النتائج التالية :

- شدّد الإسلام على الترابط الأسري ، ومقصده من ذلك بالطبع بناء مجتمع قوي متماسك تظله ظلال المحبّة والوئام.

- كشفت الآيات الكريمة عن أهمية العلاقات الأسرية في النسيج الاجتماعي ، الذي يتكون منه المجتمع الإنساني الكبير وأنّ الحب في تلك العلاقات بين أفراد الأسرة هو الركيزة التي تقوم عليها ، والمحور الذي تتمحور حوله العائلة.

- نجد في النصوص القرآنية التي تدعو إلى الحب الأسري أعلى درجات البلاغة والفصاحة ولذلك تحققت فيها كل مقومات الإعجاز البياني.

- للنص القرآني تأثيره العجيب على القلوب بما لا يتوافر لنص آخر .

- تضافرت الأساليب والفنون البلاغية في الآيات القرآنية محققة للتعبير القرآني أسمى ما يصل إليه من تأثير ووفاء بالمعنى والإمتاع بالجمال .

- تنوعت الأساليب الإنشائية في الآيات محل الدراسة بين النداء ، والنهي ، والأمر ، والاستفهام، والالتفات.

- كان لأداة النداء "يا" تمييز خاص دون غيرها من أدوات النداء ، واستخدمت لنداء القريب لأغراض بلاغية تم التنويه عليها في مواقعها.

- كان السياق الأسلوبي زاخراً بصور الاستعارة المكنية عبر العلاقة بين أطرافها، وفي ضوء قيمها الجمالية وتتبع شحناتها الدلالية عبر تكثيف واضح للمعنى، وهكذا نرى الاستعارة المكنية في الآيات المذكورة التي أطلنا القول في تحليلها أنها كانت أكثر عمقاً في إبراز الدلالة من الاستعارة التصريحية زاخرة بفيض من الصور المتدفقة.

- ولايخفى دور الكناية وذلك لما لها من قيمة بلاغية كبيرة ، فهي أبلغ من التصريح والاستعارة أيضًا لإفادتها المبالغة وتأكيد المعنى وتقريره.

- برز في الآيات الكريم الإحكام الدقيق في بنيتها مما يؤكد التناسق الفني بين ألفاظها وعباراتها .

- إن دراسة الأسلوب القرآني وجماليته تقع في القمة من حيُثُ الأهمية في الدراسات البلاغية فهي تكشف عن بعض دلائل إعجازه البلاغي .

- إن الأسلوب القرآني أجلُّ من أن يحكم بقاعدةٌ مطردة ، فقد رأينا ما للسياق من تحديد لدلالة الإختصاص أو عدمه ، فالتركيب بذاته يستفاد من بعض مواقعه معنى التخصيص بالقرائن.

- تعد الظواهر الأ سلوبية في القرآن الكريم من الظواهر التّي أكسبت اللغة مرونتها وطواعيتها والحق أن الوعي بعبقريته العربية وإدراك أسرارها لا يمكن الوقوف عليه إلا من خلال رؤية شاملة .

- إن ما تضمنته (آيات الحب الأسري) من فنون بلاغية كشف عن الدقة البالغة في تركيب النص القرآني وانسجام ألفاظه ، وتآلف عباراته ، وتناسب آياته المنسقة في جملها، القارة في أماكنها ، فهذا النص النموذج الأعلى في قّوة السبك والإحكام في النسج وحسن الإيقاع.

أهم التوصيات:

- ربط الدراسات النفسية بالدراسات البلاغية ؛ لمعرفة ما يصلح النفس البشرية.

- تسليط الضوء على الدراسات التربوية في القرآن الكريم وتحليلها بحس بلاغي يتذوقه القارئ ليكون أهدى للقبول وأيسر في التنفيذ ؛ فالألفاظ القرآنية تستتر وراءها قضايا بشرية يعجز العقل البشري عن استخراجها؛ لذا فالأمر يحتاج إلى تكثيف العكوف على هذه القضايا لاستخراجها.

- تسليط الضوء على كل ما يخدم الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ؛ فاللغة هي همزة الوصل بين العلوم كافة ، وكلما ارتقت اللغة زاد الإحساس بها والتوصل إلى مكنوناتها.

وبهذا أكون قد وصلت إلى نهاية البحث ، ولا أقصد بنهايته أنني قد أغلقت الباب على هذا الموضوع أمام الباحثين ، بل الباب مفتوح لمن أراد المزيد ، والله أ سأل أن يلبس بحثي ثوب القبول، وأن يجعله خالص لوجهه الكريم ، فإنه أفضل مأمول ، وأكرم مسئول.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، المحقق: شيخ مصطفى ومدثر سندس، مؤسسة الرسالة. القاهرة، الطبعة الأولى (١٤١٨ه/ ١٩٩٧م).

٢. أدب الكاتب، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: محمد عبدالحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط٤، ١٩٦٣م.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطاء، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، مطبعة السعادة. د. ت.

٤. أساس البلاغة، تأليف الإمام الكبير جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة والنشر بيروت – لبنان. د.ت.

٥. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، د.مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤١٠ه – ١٩٩١م).

٦. إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، دمشق ط: (١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م).

٧. إعراب القرآن، قاسم حميدان دعاس، دار المنير، دمشق، ١٤٢٥ هـ.

٨. أيسر التفاسير لكلام العلي القدير، أبي بكر جابر الجزائري، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٩. البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

١٠. بدائع الفوائد، ابن القيم، تحقيق: محمد بن إبراهيم الزغلي، دار المعالي، ط١، عمان، الأردن.

١١. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.

١٢. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (ت ٨١٧هـ) المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٢٠٠٥م.

١٣. بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو، د.نجاة الكوفي، ط١ ، دار النهضة العربية (١٩٧٨م).

١٤. التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف ، د. علي علي صبح ، المكتبة الأزهرية للتراث ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م.

١٥. تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ، إعداد وتحقيق : خالد عبدالرحمن العك ، مروان سوار ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، ط : الثالثة ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.

١٦. تفسير التحرير والتنوير للعلامة/ الطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٤هـ

١٧. التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٣٨٣ هـ.

١٨. تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام علاء الدين علي بن محمد البغدادي، المعروف بالخازن، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان.د.ت.

١٩. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، الناشر: أخبار اليوم، المكتبة الوقفية ١٩٩١م.

٢٠. تفسير العثيمين ، دار الثريا للنشر، الرياض، ط٣، ١٤٢٤هـ.

٢١. تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، ط : الثانية ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٨٧م.

٢٢. تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت – لبنان ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م.
٢٣. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي. د.ت.
٢٤. التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولى (١٤١١هـ – ١٩٩٠م).
٢٥. تفسير المراغي، أحمد مصطفي المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط: الأولى (١٤١٨هـ – ١٩٩٨م).
٢٦. التفسير المنير، الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر – دمشق – سورية، ط: الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م.
٢٧. التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط٢، ١٤٣٠ه – ٢٠٠٩م.
٢٨. التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، دار الجيل، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة ط: الرابعة، ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨م.
٢٩. التفسير الوسيط، د.وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ.
٣٠. التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
٣١. تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط: السابعة: ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
٣٢. تلخيص البيان في مجازات القرآن، حققه عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة ط١، ١٩٩٥م.
٣٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم محمد زهري النجار، جدة، دار المدني، ١٩٨٨م.
٣٤. جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٣٥. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، تحقيق : عبدالرازق المهدي ، الناشر : دار الكتاب العربي ، ط: الأولى ، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٣٦. الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ، تصنيف محمود صافي ، دار الرشيد . دمشق ، بيروت ، مؤسسة الإيمان ، د.ت.

٣٧. الحب الأسري وأثره في نفسية الطفل ، د/ عبدالباري محمد داود- إيتراك للنشر والتوزيع- القاهرة – ط١ – (٢٠٠٥م).

٣٨. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، الإمام شهاب الدين أبي العباس بن يوسف المعروف بالسمكين الحلبي ، تحقيق : علي محمد عوض وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، ط : الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٣٩. درة التنزيل وثمرة التأويل، الخطيب الإسكافي، دراسة وتحقيق: د.محمد مصطفى ، ط جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٢هـ.

٤٠. دلالة السياق ، درة الله الطلحي، طباعة جامعة أم القرى ١٤٢٤هـ.

٤١. دلائل الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر الناشر : مكتبة الخانجي ، القاهرة . د.ت.

٤٢. الرسالة، أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.د.ت.

٤٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط : الرابعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٤٤. زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، حققه محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله، خرج أحاديثه السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى ،١٩٨٧م.

٤٥. زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ، ٢٠٠٧م.

٤٦. السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت. د.ت.

٤٧. صحيح البخاري، الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إ سماعيل البخاري، مراجعة و ضبط: الشيخ محمد علي القطب والشيخ هشام البخاري، المكتبة العصرية، صيدا/ بيروت، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤م.

٤٨. صحيح مسلم بشرح النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، مكتبة الإيمان، المنصورة بمصر، د.ت.

٤٩. عمدة القارىء ، شرح صحيح البخاري ، بدر الدين العيني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت د.ت.

٥٠. فتح القدير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، حققه وخرج أحاديثه : د. عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة ، ط : الثانية ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٥١. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأليف ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان. د.ت.

٥٢. اللباب في علوم الكتاب ، للإمام المفسر أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحلبي ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، منشوارت محمد بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م .

٥٣. لسان العرب لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة (١٤١٤هـ).

٥٤. المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق:د. أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ج٢، الناشر: مكتبة نهضة مصر – الفجالة، د.ت.

٥٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب ، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق : المجلس العلمي بفاس ، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

٥٦. مختصر تفسير ابن كثير ، محمد علي الصابوني ، بيروت ، دار القلم ١٩٨٦م.

٥٧. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق : مجمع اللغة العربية. د.ت.

٥٨. معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق : عبدالسلام هارون . دار الجيل ، بيروت . د.ت.

٥٩. المفردات في غريب القرآن ، لأبي حاتم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني دار المعرفة ، بيروت –لبنان ، ط : الأولى ،١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .

٦٠. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توفية المتشابه من اللفظ في آيات التنزيل، للإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب. د.ت.

٦١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسين إبراهيم بن عمر البقاعي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع – جدة ، ط : الثانية ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٦٢. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان، دار القلم، الدار الشافية، ط١ (١٤١٥هـ).